بلال علاء

لن نصنع الفُلك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لن نصنع الفُلك

بلال علاء

لمزيد من المعلومات عن الكرمة: facebook.com/alkarmabooks

حقوق النشر © بلال علاء ٢٠٢٠

الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة

جميع الحقوق محفوظة. لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب

بأي طريقة من دون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر.

علاء، بلال.

لن نصنع الفُلك / بلال علاء - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢٠.

٢٣٢ ص؛ ٢٠ سم.

تدمك: 9789776743229

١- القصص العربية القصيرة

أ- العنوان

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠٠٧ / ٢٠٢٠

٢٤٦٨١٠٩٧٥٣١

تصميم الغلاف: كريم آدم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بورتريه شخصي

في الثلاثين من عمري، متوسط القامة، أميل للقصر والنحافة. جـربت الشـعور بـالحزن والغضـب، بالكراهيـة والحـب، بـالفرح والاكتئـاب، بالطمأنينـة والخـوف، رأيـت مـن أحبهم فـي أفضـل حالاتـهم وفـي أسوئها. أحب القراءة والمزاح ومشاهدة الأفلام والمسلسلات. أجيد الكتابة واصطناع الهدوء. أحيانًا أطوِّر بعض الأفكار التي يراها بعض الناس ذكية جدًّا. تمنيت كثيرًا أن أجيد الغنـاء والرسـم. فـي غـالب الأشـياء شـخص متـوسِّط الموهبـة وقليلـها، فـي الغنـاء والرسم والكرة والرياضـة بأنواعـها. كـان مسـتواي الدراسـي فـوق المتوسـط بقليـل، مع ثقة معلميَّ بأني أفضل من ذلك كثيرًا، لكن لا دلائل على ذلك. مثل غالب الناس، أجيد إرشاد الآخرين في حيواتهم، وأتوه تمامًا في مشكلاتي. أقـدِّر الصـداقة والمعرفـة كشـخص قـروي، ذاكـرتي قويـة بعض الشـيء، لكن ليس بالشكل المثير. دائمًا ما كان حولي أصدقاء جميلون في حيويتهم ومواهبهم وفي مساندتهم لي، ولا أظن أنني كنت أستطيع أن أفعل شيئًا من دونهم. أحب إخوتي جدًّا. وفي صغري أردت أن أصبح مهرِّجًا، ثم شاعرًا، ثم أصبحتُ كاتبًا. نقطة قوتي ككاتب . في رأيي . قدرتي على ضم الأشياء البعيدة إلى بعضها والنظر إليها نظرة كلية، وهي نقطة ضعفي في الحياة، حيث يضم عقلي كل شيء أمامه ليصنع منه مؤامرة عليَّ.

لا بـد أننـي رأيـتُ فـي حيـاتي أكثـر مـن مائـة مليـون وجـه، فـي الحقيقـة وعلـى الشاشات، وربما قرأتُ ما يزيد كثيرًا على ألف كتـاب. لـديَّ معرفـة واسـعة بشـوارع مـدينتين وقريـة صـغيرة، ومعرفة بسيطة بشوارع ثلاث مدن أخرى. أعرف جيدًا طباع ما يقرب من خمسين شخصًا، وأعرف قدر ما يمكن لإنسان أن يعرفه عن نحو عشرة أشخاص. أحلم بأصدقاء طفولتي دومًا، ولا أظن أنني ادعيت حب من لم أحب. أحيانًا تنفجر عصبيتي بلا داعٍ لتخبئ خوفـي خلفـها، ثم تخمد بسرعة. أميل للهدوء وتفرُّس الناس حين أكون في حضرة من لا أعرف، وأميل للصخب مع من أعرفهم جيدًا. لا أعتبر نفسي شخصًا سيئًا، فأنا أهتم فعلًا بمشاعر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من حولي، وأتمنى دائمًا أن تكون لديَّ قدرة أكبر على مساعدة النـاس، لكـن قـد أكـون آذيـت مشـاعر القـليلين بتـهوُّر أرعـن أو تطوَّعت بكراهية . مدفوعًا بحماسة فكرية زائلة . من لا يستحق ذلك. لديَّ بعض المشكلات التي لا أظن أن لها حلًّا سوى مرور الزمن، ولديَّ الكثير مما أحمد الله عليه، دائمًا ما كان السقف فوقي والطعام أمامي، لا يتوفَّر هذا لكثيرين، وأسأل الله أن يديم عليَّ نعمتـه. أعـد نفسـي شـخصًا معتـدًّا بنفسـه، لكنـي أعتقـد أيضًا أن رزقـي كـان أكثر من مواهبي. تجربتي فـي الحيـاة سطحية من منظور من يحب أن يسافر إلى كل مكان ويخالط كل الناس، وهو شـيء بـالطبع أحـب أن أفعلـه، لكـن لـديَّ أيـضًا بعـض القصـص والحكـايات المثـيرة. قـابلت بعـض الأشـخاص الأذكيـاء بشـكل مدهش، ورأيت جميلات وصادقتهن، وأنا لا أصدق كيف لا تكون هذه هي الجنة، وعرفت بعض الشجعان جدًّا، الذين في ظروف أخـرى، ربمـا كـانوا سيصبحون أسـاطير. تعلمـت العـوم وقيـادة السـيارات والـدراجات ولعـب الكـرة والبنـج بـونج والشـطرنج والبلايستيشن. وتعلمت بعض الفلسفة، وكيف أقول نكتتي في الوقت الصحيح لأضحك من حولي. درست الهندسة، ولم أعمل بها يومًا. وأحاول تعويض محدودية معرفتي بالحياة، بالقراءة المكثَّفة، لكني أقرأ أقل كثيرًا مما كنت أقرأه مراهقًا، وأعزِّي نفسي بأنني ربما أفهم ما أقرأه الآن أكثر.

نمت في أكثر من خمسين بيتًا، وكشخص قروي، أحب أصدقائي الذين نمت في بيوتهم، وأعرف أهلهم، أكثر من الآخرين. ولا بد أنني قد جلست في ما يقرب من مائة مقهى ومطعم، لكني عامةً لا أحب الأماكن المزدحمة. دخلت السينما للمرة الأولى مع أبي لمشاهدة مسرحية «الزعيم»، ولسنة كاملة، ظللت أدخل السينما كـل يومـين، مـن دون حتـى أن أبحـث عـن الأفـلام المعروضـة. يـربكني وجـود الشـر فـي العـالم، تـربكني طمأنينـة مـن يجدون متعتهم في أذية الآخرين، كيف يحدث هذا من كائن تنتهي حياته تمـامًا إن سـقط مـن ارتفـاع عشـرين مترًا؟ يـربكني الحـب حين يبهت، والصداقة حين تفتر، وتداخل الأفراح والأحزان بحيث لا يمكن الشعور بأي منهما. تربكني الشجاعة الغبية، والذكاء كريه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الروح. أكره سطوة الجبان، وغرور الضحل. أرثي للجميل فاقد الثقة، وللمريض، وللفقير، وأحب أن يجد كل الناس ما يخفف ارتباكهم في حياة صعبة حتى في أحسن شروطها.

أحفظ القليل من الشعر، أدندنه بصوتي الذي تمنيت أن يكون جميلًا، وأنا أسير مرتبكًا. أحفظ الكثير من القرآن الذي حفظته كاملًا ذات يوم على يد خمسة شيوخ، بخمس عصي مختلفة في طولها وقدرتها على الإيلام. وأحفظ المودة والإعجاب لكل من حاولوا أن يكون العالم أقل وطأة.

وأكتب دائمًا عن الأشياء نفسها، لأنني أنا نفسي، ولأنني مصرٌّ عليها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

١

أتينا متأخرين، لا يمكننا أن نقول ما هو مباشر، سيكون بديهيًّا، كليشيهيًّا، مكررًا، الحب، والحزن، والفرح، علينا أن نكون حذرين جدًّا في التعبير عنهم، فهي قد لا تفهم «أحبك» كدليل على عاطفة ما، ستعتبرها مجرد ميل لتقليد جملة مكررة في الأفلام، لن تفهم «أشعر بالألم في بُعدك»، ستتثاءب وتقول لنفسها: «كم هو ممل ومكرر هذا الولد»، ما أود قوله بسيط جدًّا، والسيئ في الأمر أنني تنبهت لهذا، هذه قصة مكررة ألعب فيها دورًا كلاسيكيًّا جدًّا، أتينا متأخرين، ولا يمكننا إلا التعويل على الحدس، أن يفهمنا أحدهم بالصدفة، لعن الله الشعراء السابقين.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٢

على الأقل، حين يأتي الطوفان، سيجد الأطفال فرصة لاختبار مراكبهم الورقية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٣

في النهاية يا صديقي، نحن محاصرون بالاحتمالات، حتى لو نفذنا خططنا، هاجرنا لبلدة صغيرة في شرق أوروبا، أو التجأنا للجبال، معنا كل الأفلام التي صُورت، كل الكتب المتاحة، هاردات لا عدد لها فيها كل شيء، ولم تتغير صلابة علاقتنا ولم يعترِها الملل، ظللنا أصدقاء أوفياء وملحميين، لم يتثاءب أحدنا فيما يحكي كل واحد قصته للمرة الألف، ولم يتطلع أحدنا لشهرة فينسحب ليكتب عن التجربة ويصبح كاتبًا مشهورًا أو ربما فيلسوفًا، ظللنا أناسًا بسطاء يريدون أن يعبروا هذا كله بهدوء بلا اكتراث لملاحم غيرهم، من يضمن لنا أن سؤالًا بريئًا من صديق أو صديقة معنا لن يغير كل شيء، حينما ستسأل صديقة مثلًا: «إيه رأيكم نضم ناس جديدة، اتنين أو تلاتة مش أكتر؟».

سؤال بسيط ـ وحتمي ـ كهذا سيكون كفيلًا بزرع الاحتمالات داخل حكايتنا البريئة، أعمارهم، خبراتهم، حكاياتهم، وربما ملمس أجسادهم، سؤال بريء ـ وحتمي ـ كهذا، سيكون كفيلًا بزرع إمكانية الملل ـ لوجود إمكانية دخول حكايات أخرى ـ داخلنا، وحينها سينتهي كل شيء، أو سيكون علينا التأقلم مع زيفٍ مقنَّع بأصالة جذرية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٤

أخبرت صديقتي بخوفي من الضباب، فأعطتني غيمتين، مرَّرت يديها على هشاشتي فابتسمت، ولم تكلمني ثانيةً، طرقتُ باب بيتي ولم يرد أحد، علقتُ غيمة فوقه، ومشيت، سرقتُ ابتسامة طفلة صغيرة، وحشوت حزني داخلها، العجوز التي ربَّتت على كتفي في الطريق، أعطيتها الغيمة الأخرى، ذهبت إلى السينما لأنام، بجواري جلست فتاة في مثل عمري، أخبرني تنهدها في أثناء الجلوس أن ولدًا ما يحبها أغلق في وجهها الهاتف اليوم، غافلتها وأخذت مفتاحًا من حقيبتها، وأكملت نومي، عامل السينما الذي أيقظني بعد انتهاء الفيلم، احتضنته فرحًا، معي مفتاح بيت لفتاة جميلة، محطمة مثلي، لا أعرفها ولا أعرف مكان بيتها، وهذا لا يغير من الأمر شيئًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بيت واحد

سيسع أحلامي كلها

يوم واحد

سيسع لحظاتي السعيدة

فتاة واحدة

يمكنها التكفل بكل أدوار الجميلات

وأغنية واحدة

يمكنني الرقص عليها للأبد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٦

قطة صغيرة تموء بين باب شقتهم والبوابة الحديدية، حملتها معي في الحقيبة، سأغادر قريتهم قبل طلوع الصباح، أفرغت جيوبي من الأحلام الزائدة وحشوتها بالنقود، الولد الذي علمني الصيد، وصُنع السنارات، واستخراج الطعم من الأرض الطينية، والسباحة، وكيفية الإمساك جيدًا بالمجداف، وضعت له مركبًا ورقيًّا أمام البيت، الطفلة التي لم تكن تكف عن الابتسام حتى ظنها الناس بلهاء، ظننتها ملاكًا، وقلت لأصدقائي: «هيَ «الجو» بتاعي»، رسمت لها بسمة كبيرة أمام بيتها، ولم آبه لزوجها الذي ينظر من النافذة.

سأغادر قريتهم قبل طلوع الصباح، غسلت لأمي صحون البيت، في حقيبتي ديوان شعر ورواية وكتابان عن علم النفس وما بعد الحداثة، الولد الذي علمني صناعة الطائرات الورقية طار ولم يعُد، رأيت فوق بيته القديم حمامة، خبأت حلمي جيدًا تحت ملابسي، فتحت ثقبًا في الحقيبة لتتنفس القطة، وفتحت ثقبًا في قلبي فطارت أشجار توت وشوارع، شجارات قديمة وأغنيات، وفتيات جميلات.

ارتديت معطفين، صديقي الذي ابتسم حين قلنا في عزاء أبيه «أختك جميلة بالأسود»، وتركنا العزاء وذهبنا للعب الكرة، تزوجت كل أخواته وغادرن القرية، يجلس أمام بيته يفتش الهواء عن فرصة عمل، ويقول للبنات كم هن جميلات في الأسود.

سأغادر قريتهم قبل طلوع الصباح، الفتاة التي حولت طفولتي إلى مراهقة مبكرة، ربتُّ اليوم على رأس طفلها الثالث، المرأة الكريمة التي رضيت أن تكون ضيفة دائمة لأحلامي الجنسية، ألقيت لها قبلة في الهواء، الفتى الذي علمني التماسك الزائف أمام الغرباء، غادر قبلي، سافر لبلاد الغرباء لاستعراض مواهبه، ابتسمت بالنيابة عنه لفتاتين في الطريق.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على سريري، وخمسة أحلام في أدراج مكتبي، وخمسة تعليقات ساخرة على مائدة الطعام، وتركت أمام البيت خمسة ملائكة يحرسونه. سأغادر قريتهم قبل طلوع الصباح، الولد الذي ظل يمرر لي الكرة دائمًا على الرغم من أنني أضيع الفرص دائمًا، نبت له طفل وكرش وبنتان، قابلت ابنه فاشتريت له كرة، البنت التي وقفت بجواري في المدرسة لمشاهدة المطر، فكتبت لها قصيدة رديئة، ورأيتها بالأمس تبكي في الشارع، وضعت أمام بيتها شمسية.

سأغادر قريتهم قبل طلوع الصباح، صعدت بالأمس جميزتين وشجرة جوافة وشجرة توت، ولم يكن موسم الجميز ولا الجوافة ولا التوت. صنعت سنارة وذهبت للصيد، السمكة الصغيرة التي تعلَّقت بالسنارة تركتها تتأمل ملامحي جيدًا ثم ألقيت بها في الماء، فخرجت لي مرة أخرى، فوضعتها في كيس فيه ماء وأغلقته جيدًا، ووضعتها في الحقيبة، فابتسمت القطة ولم تلمع أسنانها.

سأغادر قريتهم قبل طلوع الصباح، الأخوان اللذان علماني تربية الطيور، ذهبت إلى منزلهما، سمعت زقزقة العصافير في الجرس ولم يرد أحد، لكني حين غادرت حطت حمامة على كتفي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٧

ببساطة، يمكنك أن تجتهد يومين كاملين في تجميع كل حكاياتك الحزينة، آلامك، ذكرياتك السيئة، كل ما تحفظه من أشعار سيئة، للأسف هناك أشياء كثيرة لا نختارها، كل الفتيات اللاتي لم يعِرنك ولو التفاتة واحدة، تضع كل ذلك في كيس بلاستيك أسود مخصص للقمامة، آسف طبعًا إن بدا في هذا بعض القسوة أو ربما عدم احترامي لحزنك، ثم من بلكونة شقتك تطل على الشارع الواسع الذي . لحظه السيئ . لم يصبح ميدانًا، وهو لذلك حزين بطريقته، تتأمل فيه قليلًا، ثم تختار الضحية المقدسة، تلقي أحزانك كلها، لتصيب ضحيتك المقدسة، عابر سبيل لم يكن يفكر إلا في غذائه، لكنه يتلقى ضربة القدر، ضربتك هذه، بصدر رحب، لم ينظر إلى الأعلى ليرى من ألقاها عليه، إنه يتلقى رزقه بيقين صوفي لا مثيل له. يفتح الكيس ويقلب فيه، فلا يجد ما يسد رمقه به، يربط الكيس، ويقذفه إليك مرة أخرى، فلا تتلقفه، لا تكترث لنداءات الاستغاثة من داخله، تتركه يهبط للأرض، فيتكسر كل ما فيه، حكاياتك تصبح مدغدغة، قصصك مبتورة، الأشعار تتحول إلى أشطار أبيات غير مكتملة، والمكتملة فيها أصبحت مكسورة الوزن. أبطال قصصك أصيبوا جميعًا بعجز أبدي، بعضهم حتى فقد القدرة على أن يكمل أي دور في أي رواية مهما كانت أدوارهم هامشية، لقد انتهت مسيرتهم الروائية قبل أن تبدأ، ألمح من هنا، ابتسامتك وأنت تراهم هكذا، نشوة الانتقام لها مذاق رائع، همم، أليس كذلك؟ ناولني قليلًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٨

تعرف جيدًا ميزة أن تمتلك حكاية حزينة، في قلبك.

أصدقاؤك. عن طيب خاطر. سيتغاضون عن بعض قسوتك ونزقك.

أمك، التي تندهش من أين أتيت بكل هذا الحزن، ولا تعترف إطلاقًا أنها أورثتك استعدادها المثير. والملحمي. في مراكمة الحزن والمحافظة عليه طازجًا ومؤلمًا أبدًا، ستتوقف تمامًا عن مضايقتك، لأنها تعرف جيدًا أنك لن تحتمل أي شيء.

الحزن الذي تتناساه في الأتوبيسات، لتهرب منه، سيجري الناس وراءك ليخبروك. مفتخرين بشهامتهم. «الحمد لله إننا لحقناك، إنتَ نسيت كل الحزن دا»، ثم يتركونك مندهشًا من جوهرتك هذه التي لا يود أحد أن يسرقها.

سيحاول غالب هؤلاء الذين ستعرفهم أن يتجنبوا تمامًا تلك الهشاشة داخلك، ربما حتى سيراك بعضهم. بشكل من الأشكال. فارسًا نبيلًا تائهًا، حين يلمحون غبار المعركة على جبهتك.

البنات. صحيح أنهن لن يبادلنك الابتسام. لن يتضايقن من نظراتك الحزينة هذه، أنت شخص يمتلك حكاية حزينة. وستدرك بالوقت أن هذا ليس أمرًا شائعًا. ولأن الناس لا يعرفون أمثالك جيدًا، ويتعاملون معكم كبقايا كائنات منقرضة، فهم لن يعرفوا أبدًا أنك. تمامًا كالآخرين. يراودك بعض الأفكار الشريرة، الشريرة جدًّا.

صحيح أن هذه كلها مميزات عظيمة لشخص مثلك، لم تعد تدق طبول الملحمة في قلبه، لكن ماذا ستفعل حين ترى الحزن يراود عينَي من تحب، كيف ستعطيها قلبًا خاويًا إلا من حكاية حزينة، ليؤنس قلبها، من دون خوف أن تراك. وهي التي تظن أصلًا أنك إنسان شرير. لم تكن تقصد إلا مراكمة الحزن فوق قلبها؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حصوننا التي نبنيها ببطء من أوقاتنا السعيدة، لنستمتع بالوقوف في أبراجها، نشد أقواسنا، ونرمي سهامنا على أولاد الكلب في الأسفل، مشيرين لهم بأصابعنا الوسطى، وصارخين بكل ما نعرفه من ألفاظ بذيئة، أصبحنا نغادرها سريعًا، كلما لاحت حصون أخرى في الأفق انطلقنا عدوًا إليها، بحثًا عن معارك أخرى، و«آخرين» آخرين، أو نفتح أبوابها لهؤلاء الذين لم نعرفهم، نتأمل خطواتهم الغريبة، تمحو آثارًا اجتهدنا في ترسيخها، ونجلس ننفخ الهواء، ثم نشد السحاب علينا لننام، حالمين بحصار قاسٍ لا ينتهي، بصرخات وأصداء وطبول وسيوف وخيول، آملين أن نصحو على معارك جديدة، وأعداء يستحقون كراهيتنا لهم، ويتقنون دورهم في المعركة، أعداء يعيدون إلينا حماستنا الأولى.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عاقبه الله على حزنه، فجعل له صوتًا سعيدًا، كلما حكى حكايته للناس، ابتسموا في وجهه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كعرض عسكري رتيب، لدولة شيوعية في أعوامها الأخيرة، تعبر أيـامي أمـامي، متجـهمة ومبالِغة فـي جـدية ملامحـها، عـرض عسكري لا أستطيع التدخل في إخراجه بشكل أكثر ابتهاجًا أو حداثة، لأسباب تتعلق ببيروقراطيـة الأقدار، وبضرورة الحفاظ على فجائية الانهيار الوشيك.

9%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

١٢

اليوم، سأنزل لأصافح كل المتزاحمين على الميكروباصات التي تذهب إلى حيث لن أذهب أبدًا، أقبِّل هؤلاء الذين يدخلون أفلامًا لن أدخلها، أشكر من يحبون فتيات لا أمتلك الوقت لأحبهن، المجرمين الدؤوبين، مرتزقة الحروب، المؤمنين بأديان لا أعرفها، البنات اللاتي يرقصن بعيدًا عن عيني، وأحيي شعراء لم أسمع بهم، في لغات لن أعرفها، حسنًا، جميعكم تلعبون أدواركم جيدًا جدًّا في المسرحية، سيكافئكم الله يومًا ما على هذا التفاني، لكن ألا يمكننا الاستراحة قليلًا، ليومين مثلًا، ومن ثم نبدأ من جديد؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحزن، وسامة أرستقراطية صامتة، تغني أمثالنا عن مكابدة أهوال البحث عن عمل

الحميمية، أزهار نابتة في ثغور الهشاشة، نقطفها على مهل، ثم نغرسها في شعور الجميلات، ونبتسم

الحب، كاتدرائية المؤمنين المتبقية بعد اغتيال الله، مهدمة، على نوافذها ظلال أبطال يجوبون العالم لنشر الإيمان، وفي باحتها، يصلب الرهبان، أنفسهم

الشعر، تعويذة البدائيين لاستمالة السماء، تعويذة لم تستطِع الحداثة، بقطاراتها السريعة، أن تدهسها

الملحمة، درب من لم يكتشفوا، بعد، صدأ السيوف

والإيمان، بقايا اطمئنان طفولي لهدهدة الأمهات

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

١٤

قدراتنا محدودة، لا نستطيع بعد أن نخزن الحميمية في صدورنا، ثـــم نجترهـا حـين نحتـاج إليـها، لـم تنبـت حولنـا هالـة كهرومغناطيسية، تصد عنا ضربات الحزن والحنين، لا يمكننا حين نخاف على من نحبهم أن نتجاوز حدود أدوارنا في المسرحية، ولا نمتلك الشجاعة لنخوض حربًا نهائية ضد ما ندعي كراهيته: الثقل، الزيف، الظلم، أكتافنا مثقلة بخيباتنا الخاصة، على السماء أن تتحمل مسؤوليتها الوجودية، أو تدعنا نحوم حول أشجار التفاح للأبد.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لن نصنع الفلك، سنكتفي بجلسات المقاهي.

أما نحن يا صديقتي، فعوضنا خيباتنا المتتالية بنوستالجيا غامضة لما لم يمكننا الوصول إليه، واستنجدنا بقاموس ملحمي لينقذنا من مستقبل دون كيشوتي. تلفعنا بشعر مليء بالحميمية، ليطرد عنا إحساسنا المرير بالبرودة، وجبنا شوارع طويلة، لاصطياد ابتسامة عابرة، آمنا بالديانات كلها، أملًا في إله يرسل جيوشًا من الملائكة ليخوضوا حروبنا معنا، دفاعًا عن مبادئ لم نعد واثقين بها، قرأنا ابن سيرين، وفرويد، لعلنا نعرف يومًا سبب تلك الوطأة التي تتركها أحلامنا علينا. صحيح، نحن لم ننجح في حفظ ضحكات أحبائنا داخل خزانات حصينة في قلوبنا، ولم نتقن يومًا رمي سهامنا في قلوب الآخرين، فلم نحظَ يومًا بحب محارب، لكننا حين سنغادر، سنترك وراءنا شوارع مليئة بهمس أصواتنا بقصائد تكاد تخلق الحب خلقًا في قلوب الناس، مدنًا مليئة بهتافات تكدر صفو التواطؤ الجمعي مع القبح، كتبًا عن كيفية خلق اليوتوبيا في ثمانية عشر يومًا، لن يصدقها أحد بعدنا، استطبنا نشوة الأحلام، وهجرنا أولئك الذين يحبون أن تتلبسهم روح زرقاء اليمامة، أولئك الذين سيقضون أعمارهم بتعريف أنفسهم، كمتنبئين، لم يروا إلا الخسارة، لقد سحرتنا روح الأنبياء، فبشرنا مثلهم بأديان لم يصدقها أحد، وأحببنا من لم يحبونا، لكننا لم ندِر خدنا الأيسر.

أما نحن يا صديقتي، فلم يفلح هجر من نحبهم، لنا، في إثنائنا عن مواصلة السير فوق خطواتهم، لم يفلح سير الزمان سريعًا، في تخفيف رغبتنا في محاولة تقبيل آثار مرورهم الخاطف، فوق دنيا لا نملك العزيمة لنجوبها كلها، فسرنا القرآن في حلقات المساجد، وناقشنا «ماركس» في جلسات المقاهي، لعبنا، أطفالًا، في أي شارع اتسع لطفلين يسابقان بعضهما، ثم سرنا في تلك الشوارع، شبابًا، مفكرين في تغيير العالم، ولم نحاول يومًا ضم السبابة والإبهام، للتظاهر بالقبض على الشمس.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كنا شيوعيين دومًا، فتركنا ما لكل الناس، لكل الناس.

مؤمنين دومًا، فأرشدنا الناس لجنات لم نرَها

متعصبين دومًا، فلم تثنِنا جراح الرأس عن خبط الجدران برؤوسنا لهدمها

أوفياء دومًا، فلم نراجع أحدًا في أمل تركناه عنده

ملحميين دومًا، فاخترنا من الشوارع، أكثرها ازدحامًا، للسير فيها

طفوليين دومًا، فلم نصنع الفلك، خشية أن نخطئ عد أصدقائنا وقت الرحيل، فنترك وراءنا أحدًا نحبه ويحبنا

نوح صنع سفينته سريعًا، ثم أفنى عمره في التأكد من وجود أصدقائه، أما نحن، فأعمارنا قصيرة، لم نرَ المسيح مصلوبًا، ولم ندرك الحسين وحيدًا محاصرًا، لكننا وُلدنا وفي قلوبنا أثر لخذلان ما، فسقينا مع موسى المرأتين الضعيفتين، ثم ذهبنا، نستريح تحت الشجرة نفسها، ولم يأتِنا أحد بدعوة للزواج، فكدرت نبوتنا، بعتاب مستمر للسماء.

أما نحن، فكانت تكفينا ضحكات بعيدة، تأتي عبر شبكات معقدة للهواتف، لنصنع منها حبًّا جميلًا، ومحبين ملحميين، لا يمكننا استبدال أي شيء، بعدها، بهم، لم تكن تنقصنا مراوغات لغوية لصنع حكايات أخرى بنهايات أقل كآبة، ولا بلاغة تزين كل حكاية، بمجازاتها الخاصة، لتصطنع أصالة زائفة، لقد أحببنا كوننا أغبياء في حبنا، وحاربنا احتمالات الشفقة البغيضة، عند الآخرين، بقدرتنا على سب «ولاد الوسخة» في وجوههم.

سنترك ما لكل الناس، لكل الناس، صباحات دافئة على مدن نائمة، شوارع خالية إلا من قلائل يجوبونها وحدهم، موسيقى صاخبة في حفلات ليلية، نكات بذيئة في المقاهي، دفء الأجساد الملتحمة، رسوم طفولية لعوالم بحرية متخيَّلة، ابتسامات العابرين، زحام الشواطئ، ملمس الرمال، مذاق البحر، أحلام اليقظة، ضجة الأسواق، ألم الأقدام عند السائرين طويلًا،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والخائفين أن تنتهي دروبهم الحميمية فجأة، نوم المنهكين، ارتواء الصائمين، فرحة الأعياد، أحلام تغيير العالم، صوت الرعد، حفيف الأشجار المنسية في الغابات، دعاء المسنات، المكر الطفولي، الأثر الغريب لضحكات الأصدقاء حين تأتي مندفعة من ورائنا، قبل أن نراهم.

سنترك ما لكل الناس، لكل الناس، ونأخذ معنا، لحظاتنا الحميمية، شكاوى أصدقائنا، تجاربنا الأولى، نقاشاتنا الحماسية، رنة أصواتنا، إشارات أيدينا في الحديث، شكل خطواتنا، ونغادر، لا آسفين كثيرًا، ولا فرحين بشدة، كنا كما نحن، وأحببنا ذلك.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

١٦

انزلقنا إلى الدوائر الخاطئة في الأوقات الصحيحة، ثم عدونا إلى الدوائر الصحيحة، في الأوقات الضائعة، لم نكن يومًا إلا غرباء أو متأخرين، تعوزنا الحماسة، أو تنقصنا المعركة، تفوتنا لحظات الذروة، لخوف مرضي من الزيف، أو لنقص وراثي في المشهدية، أحببنا من كان ينبغي أن نحبهم، وقت أن كنا من لا يجب أن نكون، ثم أحببنا من لا يجب أن نحبهم، وقت أن أصبحنا أنفسنا، تتفلت منا الدنيا دائمًا على لحظات قليلة، أو هكذا نخدع أنفسنا، ونرجو، في كل مرة، بعض الدقائق الإضافية، فما زلنا نملك أملًا لا نعرف ماذا نفعل به.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

١٧

ارتكبت خطأ فادحًا حين تخليت يومًا عن يقين الوحدة، أملًا في حميميــة مؤجلة، يقين لا يمكن استدعاؤه مرة أخرى بمجرد الحنين إليه، أو باكتشاف خسارته إلى الأبد، لقد ألقيت جزءًا من ذاتي إلى الخارج، وإذن مرضت بالتعلق السريع بما يمكنه أن يرد هذا الجزء إليَّ، وبالألم المستمر لفقد ما لم أمتلكه يومًا، بالضجر من الانسداد المتتالي للآفاق المخادعة، فلا التدريبات المكثفة على الابتسامات الزائفة يمكنها أن تخلق مشهدًا حميميًّا، ولا الصراحة المثابرة يمكنها أن تعوِّض طمأنينة الظل، ولا حتى التحليل العقلاني للممكن سيُفقد القلب ضراوته في نسج التطلعات الملحمية. الحياة كانت لتكون أبسط، لو كانت خيبة الأمل قادرة على اقتلاع الأمل نفسه جذريًّا وإلى الأبد، كانت لتكون أدفأ لو اقتنعنا بالحميمية كهبة قدرية، وإذن لم نسعَ إليها، لم تكن الحميمية يومًا إلا مغامرة، يمكنها أن تنتشلنا للأبد من صخب الجموع، أو تقذفنا بلا رأفة في دوامات الأمل/الخيبة، من سيعيد إلينا، مرة أخرى، هدوء بال الزاهدين؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

١٨

أحيد عن دربي لأهدئ من روع روحي، أسكن قليلًا بيوتًا لا أعرفها، لأخبئ فيها بقايا الطمأنينة داخلي، أملًا في العودة إليها يومًا ما، وأعرف أن نقاشاتنا الحماسية سيمحوها صخب الزمان، نداءات الباعة، هتافات الثائرين، أصوات الآخرين ونقاشاتهم الحماسية. أُخرج من قلبي جميع من أحببت، وأشاركهم العشاء الأخير كل ليلة، ثم أودعهم فيه، وأهمس لهم: «نومًا هنيئًا»، وتكسبني خيبات أملي القدرة على كبت الرغبة في ملاحقة حميمية تومض من بعيد، وأناجي أشباح الغائبين فأستنزف آخر بقايا الحب القديم. أسُد ثغرات الهشاشة بسخرية مغلفة بقسوة مزيفة، وأطعم حزني ببعض من الحماسة الأيديولوجية، حمايةً له من الابتذال. أحيد عن دربي لأهدئ من روع روحي، وأعرف أن صخب الزمان سيمحو كل شيء، فلا أقسو على آلامي القليلة، أو أطالب نفسي بمزيد من التماهي مع الحكاية، سنسير قليلًا على أي حال، الرفقة زائلة، والطريق ستمحوه خطوات العابرين خلفنا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

١٩

في النهاية يا صديقتي، لم نكن نمتلك الحرية الكافية للامتعاض من جميع الخيارات، ولا الشجاعة اللازمة لإعلان الضجر النضالي من كل شيء، ولا حتى الإيمان الكامل بموقعنا في المعركة، لم نكن متحمسين تمامًا، ولا مجبرين حتى النهاية، ولكن مدفوعين بجاذبية ابتلاع الزمن لحيواتنا، وإذن الوأد المتتالي لأثر من أحببناهم في نفوسنا. لم يكن أمامنا إلا اختيار أماكن سقوطنا كل مرة، دفع السماء لأعلى قليلًا، الأصدقاء أقرب قليلًا، تصفية الهواء قليلًا من ثقل آهات العابرين، حذف بعض آثار إحباط الأصدقاء من فوق ابتساماتهم لنا، وتجاهل خذلان أنفسنا لأنفسنا، ثم تجاهل بعضنا البعض، ثم السير بعد ذلك، متسترين على جريمة طازجة، لا نتلفت، لا نسير متجاورين، لا يتحدث أحدنا عن الآخر، جريمة كاملة، تمامًا، سوى أننا لم ننسَها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٢٠

آثار أقدامنا مقابر مؤقتة لزمن عابر، وضجيجنا وشم في الهواء، الدرب ليس طويلًا جدًّا، لكن لا يمكننا أن نحدس حتى باقتراب نهايته، أو إن كنا حتى نريد الوصول. الصبر إقناع النفس بخفة الحاضر، في انتظار ما لا يمكن التكهن به، أو تسليم صوفي لحكمة تقليدية من فم نبي مغمور: «سيمر كل شيء، كأن أحدًا لم ينتظره»، أو أمل في شحاذ متنبئ يصرخ ليخبر المدينة بقرب انهيارها، فنبدأ في زرع زهور لننثرها على قبور الناس، أو لينثروها على قبورنا، لا رفقة صادقة سوى رفقة الحرب، حيث النهاية مستمرة في الحضور، لتنقض مفهوم المسافة، ولا رفقة الحرب ستفيد بعد انتهائها، حين تسترجع المسافة ثقتها الكاملة فتتسع، وحيث يمكن لطمأنينة خادعة بانسحاب النهاية أن تهدم كل شيء. ما يمكنه أن يكون أصيلًا، لا يمكنه أن يكون حاضرًا أبدًا، وإلا انتفت إمكانية تمايزه عن زيف مفترض، وما لا يمكنه أن يكون حاضرًا أبدًا، لا يمكنه أن يكون أصيلًا، حيث لا يمكن للحقيقة أن تكون محض واحد من احتمالات عديدة للخطأ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

دومًا يمكنـك إضـافة القليـل مـن الأسـى الطـازج علـى حكـايتك القديمة، اجتذابًا لتعاطف ضجر لم يعد يمكنه أن يمنحك شعورًا بالـدفء، ثـم سـتدرك مـع الـوقت أنه لا بأس من تجربة طريقة أخـرى، لتحـول حكـايتك إلـى قصة ساخرة، تحكيها بنبرة رجل ناضـج لم تعد تهمه حماقات المراهقين وعواطفهم البائسة، ثم سـتسمع ضـحكاتهم، وسـيوجعك ذلـك، وسـتخفي وجعـك فـي ضحكات هستيرية مكشوفة للآخرين. وحين تنتهي من كل ذلك، لن تجد أمامك أخيرًا سوى ما كنته في البداية، مجرد شخص آخر، بحكاية بائسة أخرى، لا يعلم كيف يمكنه أن يراوغ وطأة وقوعه في مفرمة التكرار، سوى أن يكرر إعادة صياغة حكايته مرة أخرى، في شكل أكثر مأساوية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٢٢

في النهاية يا صديقي، أنا وأنت نعلم أن حياتنا الشخصية كانت أكثر صفاءً وخفة واتساعًا، حين كنا متأكدين تمامًا من كوننا مغلوبين، إنها لم تكن إطلاقًا بهذا الضيق، إلا بعد أن لاح لنا نصر من بعيد، نصر لم نبلغه قَطُّ، لكنه أضاع كل شيء. لم يكن علينا أن نشرب من هذا النهر، ولكن إن لم يعُد بوسعنا العودة بإرادتنا إلى حيث نتخيل إطلاقية أخلاقنا في مواجهة الآخرين . لقد كانت هزيمتنا جميلة لأنها لم تكن مخططة . فكيف يمكننا أن ننسى للأبد مذاق هذا النصر المر؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم أرِد قَطُّ هوية ما لأشعر بالألفة مع جماعة مفترضة، جماعة ذات طقوس وكلمات محددة، لقد تنبهت مبكرًا لما سيلازمني طوال الطريق: الضجر المصحوب بنقص وراثي في المشهدية، فاكتفيت بمحاولة خلق دائرة حميمية، أينما تنقلت، دائرة تستطيع التفلت من الاندماج التام في الملحمة، وإن لم تترك أرض المعركة. لقد انتميت على الدوام لمجموعات المتهامسين سخرية، مجموعات المقاعد الأخيرة، التي وإن لم تكن تريد مغادرة القاعة تمامًا، فقد احتفظت بهامش من اللامبالاة والحميمية لنفسها، أما بقية المجموعات الصاخبة، المتماهية تمامًا مع الحدث، المتزاحمين على الواجهة، فقد اعتبرناهم دومًا «شوية معرصين»، على الرغم من امتلاكهم قدرة على التضحية في سبيل الفكرة، تفوق كل محاولاتنا الصادقة لحماية أصدقائنا، لقد اعتبرنا الاندماج الكامل في الملحمة شكلًا من أشكال النفاق. وفي التحليل الأخير، لقد اعتبرنا الملحمة نفسها شيئًا لا يمكن الإيمان به حتى النهاية، ولكن من الأفضل دائمًا الوقوف على أطرافه، وليس الخروج منه نهائيًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٢٤

بلا سبب، طوال اليوم يلح على ذهني حلم قديم؛ بنت جميلة جدًّا، صديقة لصديقاتي، تجلس في الشارع، على كرسي أنيق، تمسك عودًا، وتغني لفيروز: «ألم أقل لك يا حبيبي، كل حبي لك زائل»، لم نكن نعرف بعضنا جيدًا بحيث أقاطعها، ولكن ليس للحد الذي يسمح بالتجاهل، هززت رأسي وهزت رأسها، وجلست على الرصيف المقابل لها، لأستمع، ثم استيقظت، مندهشًا. وفي محاولاتي لتحليل الأمر، ظللت أفكر في الشخص الذي أزاحه عقلي الباطن، لمقاومة باطنية ما، وعوَّضه بهذه البنت، لوجود صفة ما مشتركة بينهما، استعارة مكنية بشكل أو آخر، اليوم فكرت، أنه ربما كان العكس تمامًا، ربما ضاع درب، كان يمكن فيه لقصة الحب هذه أن تحدث، درب أحب فيه هذه البنت، نصنع معًا ملحمة حب مأساوية أخرى. ولسبب ما، وربما بعد استخدام آلة زمنية، تمكنت من مراوغة هذا الدرب، والسير في درب حب آخر، يبدو لي مأساويًّا جدًّا، ولهذا قرر شبح حبها المستقبلي أن يواسيني بهذا الشكل، تذكيري بدرب لم أسره قَطُّ، بقصة لم يقدر لها أن تحدث، مواساة قبل الأوان. اليوم أيضًا، فكرت أنني عندما أقابلها، ودون أن أخبرها أبدًا بقصة الحلم هذه، سأحتضنها وأخبرها أنه: «ولا يهمك»، وأربِّت على كتفها، من دون أي تفسير.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مع الوقت، انقسمت مشاريع صداقاتي الملحمية إلى قسمين عظيمين:

. الصداقات الصلبة، المتكسرة بهدوء ورتابة، خيبات أمل خفيفة متصاعدة النبرة، خطط تنازلية الحماسة لإعادة الإنعاش، أو لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، قلاع متهاوية لجيوش عنيدة، التشجيع اليائس لتأجيل لحظة الاعتراف بضرورة التسليم، ثم الابتسامات المرتبكة بين صدق الذكرى، وخجل التواطؤ على عدم الاعتراف باقتراب النهاية. اليوم وطوال خمس ساعات ظللت أفكر في الاتصال بصديقة . ليست هي التي ستظن أنها المقصودة بهذا الكلام . ثم ترددت حينما فكرت أنها «محاولة فاشلة من نظام يحاول عبثًا التعتيم على إخفاقه» كما يقول الإمام الغائب في فيينا. ثم فكرت ثانيةً أنه ما دمت أريد الاتصال بها فعليَّ أن أفعل، ولأترك الأمر يسير كما قُدِّر له أن يسير، فإن كان زيفًا، فسيذهب وحده، وإن بقيت به أصالة ما، فسيكون من المؤلم فيما بعد اكتشاف ضياعها بسبب الخوف المرضي من تحويل الحميمية إلى محض مشهدية زائفة، لم أتصل طبعًا. يمكنني هنا أن أقول إن المخاطرة بوحدة صلبة، خير من المخاطرة بحميمية مدعاة، ولكن لن أقول هذا، لست أؤمن بهذا.

. الصداقات التي ذهبت فجأة مع من ذهبوا فجأة، كخطأ لا يمكن تعليله، وصُحِّح بتدخل إلهي لا يمكن رده، فقدان شبه كامل لما حدث، ولما كان يمكنه أن يحدث، وبالتالي أيضًا صداقة متحقِّقة الكمال، لانعدام إمكانية كشف زيفها، بنهايتها في أوجها. اليوم مررت أمام بيت أحدهم، أحبه، للحظة فكرت أيضًا أن أتصل به، ثم فكرت أنني أحبه، وأن هذه النهاية المفاجئة، والمترفعة عن أي محاولات جراحية لإطالة عمرها الحقيقي، جمال لحظي عابر وغير مكترث، الوجود كنزوة مختلسة، على أي حال، كنت سأجد في النهاية، تحليلًا ملائمًا لكوني لن أتصل بأحد.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الآن تـذهب أيـام الـحزن الشـخصي الشـفيف، الـحزن الجميـل، الخاص، وغير المعد للمشاركة، الحزن الذي لا تمكن حكايته، ولا يمكن لحكايته أن تخفِّف من وطأته، ليالي الهستيريا، التفكير في الانتحار، كخيار شديد الخصوصية، لا يمكن اعتباره حالة عامة، أو تأويله ارتباطًا بتاريخ محدَّد لبلد ما، الحزن الذي قد تسبِّبه ابتسامة فتاة في سنين ماضية، ابتسامة لا يمكن للجميع الوصول إليها، ولا يمكن للجميع إن وصلوا إليها أن يحبوها. الآن يضيع كل ذلـك، ليأتي الحزن العام، المبتذل، الحزن الملقى في الطرقات، ليأخـذه أيٌّ كـان، الحزن الذي يتشاركه الجميع، الحزن كواجب، كفريضـة، الـحزن الـذي لا يمكـن الـهروب منـه، الـحزن كموضـوع للنقاش في جلسات المقاهي، التفكير في الانتحار كواجب جيلي، أو كتجربة عامة، الآن تفقد ضحكتك كل جمالها، ويفقد الأمل في وصالك شحنته الحزينة، الآن يمكننا أن نتشارك الحزن جميعًا، بلا أدنى شعور بالحميمية مرة أخرى.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بشكل أو بآخر، أظن أن حياتي سارت كأنها خُطِّط لها جيدًا، كأنني كنت أعرف ماذا أفعل، لكن الأمور الجميلة كانت تحدث دومًا بعد موعدها بقليل، وإذن بعد تلاشي حماستي الطفولية تجاهها، لم تحدث الأشياء الجميلة في وقتها قَطُّ يا صديقتي، وإذن كان مصير كل ملحمة أن تنتصر بعد خفوت جاذبيتها، بعد أن يكون محاربوها قد أنهكوا تمامًا، فلم يمثل الانتصار لهم سوى الإيذان بالراحة وليس بابتداء اليوتوبيا.

الأشياء الجميلة تحدث متأخرة، بعد أن يكون القلب قد مل، ولا يشارك في الاحتفال إلا امتنانًا لسنين مضت كان الانتصار فيها ليكون أجمل وأكثر بهاءً. بالأمس ظللت لساعات طويلة أكتب لكِ خطابًا طويلًا، أبادل عتابكِ بعتاب أكثر منه حدة، كانت آخر جمله هي: «على الأشياء الجميلة ألا تحدث متأخرة»، خطابًا لم أرسله لأنه كما لم تعُد عندكِ القدرة على شرح أي شيء كما تقولين، فأنا لم أعد قادرًا على المضي وحيدًا في ملحمة هستيرية لا أعرف تمامًا إن كنتِ تريدين لها الاستمرار أم لا، أنا أخشى فعلًا ألا يبقى لنا في النهاية ما نتبادله سوى ضجرنا المشترك.

لكل الأشياء فترة صلاحيتها الملحمية، بعدها تتحول إلى درب ربما يكون جميلًا وصعبًا، لكنه لا يعود ملحميًّا مرة أخرى، ينبغي أن ينتزع الانتصار في لحظة التجلي الملحمي للأشياء، حيث كل شيء معقَّد وصعب ومليء بالمخاطر، لكن بالأمل وباحتمال فرحة أكبر، بعد ذلك يمكن للانتصار أن يجلب الطمأنينة، وليس السعادة.

على الأشياء الجميلة، يا صديقتي، ألا تحدث متأخرة، بعد فوات أوان زخمها المشهدي، اتقادها الحماسي، على الأشياء الجميلة أن تحدث في عنفوانها، متحدية، ومحتفظة بحسها الساحر مما هو مقبل، على الأشياء الجميلة أن تحدث حين يكون القلب لا يزال محتفظًا بكل طاقته الاحتفالية، على الأشياء الجميلة ألا تحدث بعد نهاية الحفلة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هاتفك يرن، لكنك تعرف جيدًا إلى أين سينتهي كل هذا، الفتاة الجميلة ستجلس بجوارك مرحة ومبتهجة، أنت صامت مبتسم، تحاول بصمتك أن تؤجل قدر الإمكان مفعول متلازمة بلال علاء، المتلازمة التي ستجعل فتاة جميلة مرحة، كنت تفكر في حبها، تقطع ضحكتها فجأة، وتعود برأسها للوراء، تنفخ، ثم تقول وهي تنظـر فـي عينيـك: «تعـرف، أنـا أمتلـك أيـضًا حكايـة حزينـة»، وستبتسم لأنك تعلم كونك محفزًا جيدًا للحكايات الحزينة، أما هي فستبدأ تحكي أشياء عن طفولتها، أبيها، معاركها مع أمها، خيبات الحب والأمل والثورة. أنت الآن في مغارة، مغارة ضيقة، وأمامك فتحتان وعليك الاختيار، مسايرتها في الحكاية ستجعلك «الصديق الحكيم»، وستظل في هذه المغارة ردحًا طويلًا، حتى تجد هي من يقاطعها في بداية الحكاية، ليفتح إمكانات أخرى لمشاعر أخرى.

بـإمكانك أيـضًا ألا تسـايرها أنـت، وتفتـح تلـك الآفـاق بنفسـك، وستقرر هذا، لكنك في اللحظة التي ستختارها للمقاطعة، ستتذكر تلك الفتاة الأخرى، التي لم تعد تعرف بالضبط هل تحبها أم لا، وسيمنعك حضورها الخيالي من المقاطعة، الفتاة الجميلة أمامك، إذن، ستكمل حكايتها، وأنت ستصبح لها «صديقًا حكيمًا»، وهو أمر لن تكف عن السخرية من مفارقته، لكونك على عكس كل «الأصدقاء الحكماء»، لا تقول أي حكم، ولا تمتلك أي خبرة في مسائل الحياة، أنت حتى تحب فتاة لم تقبِّلها قَطُّ، ولست متأكدًا إن كانت سترد عليك التحية في الطريق أم لا، لن تتدخل في شيء، ولن تعلق بأي شيء، لكنك ستصبح صديقًا حكيمًا، أنت الذي لا تمتلك أي مهارات دعوية، يجدك الناس حكيمًا أكثر وأنت صامت، أنت أيضًا تعرف أنك حين ستبدأ في الحديث، ستبدأ الأمور بدورها في السير عكس ما تريد، لهذا ستفضل الصمت أيضًا، فالفتاتان اللتان حاولت التدخل في حياتيهما مرة واحدة، إحداهما لتقنعها بأفكارك عن الله والدين والوجود، أفكارك شديدة التفاهة التي كنت مهتمًّا بها ذلك الزمن، لم تحدثك من سنوات،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لأن الله سيغضب من هذا، لكنك تعرف أن البشرية تقترف أشياء أخرى يمكنها أن تُغضب الله أكثر، الله لن يترك كل تلك الحروب والقتلى ليغضب منك أنت لأنك حادثت فتاة تحبها. والفتاة الأخرى التي حاولت بخجل مشاركتها في قرارات لا تخص أحدًا سواها، فعلت كل ما حاولت نصحها ألا تفعله، وافترقتما للأبد، هي ما زالت على الأرجح تعتبرك صديقًا حكيمًا، صديقًا حكيمًا ربما فقط شاءت الصدفة ألا يتفوه سوى بالخراء في حكايتها، لكنها ستظل تراك بشكل عام ومجرد، شخصًا حكيمًا، وهذا ما سيجعلك لا تقاطع الفتاة التي تجلس أمامك الآن. شهور من الآن، وستجد شخصًا آخر أقل حكمة منك لتحبه، فلا داعي إذن لافتعال القسوة، البدايات المبتسرة هذه ستخلق نهايات أشد ابتسارًا، لا داعي للعجلة، دع الأشياء تمشي في مساراتها، وأكمل قهوتك.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ماذا يحدث بعد انتهاء الملحمة؟

الخطى المرتبة السريعة في المسيرات، ستضل طريقها للبطولة

تتفرق في السينمات والشوارع والمشارح والسجون

الهتافات العالية الموزونة، سيمحوها ضجيج الزحام

صداها المقاتل، العنيد، لن يصمد أكثر من ساعة

والذين ظلوا يرفعون رقابهم في أول المسيرة، ليروا آخر الحشد، مبتهجون

سوف يتلقون الرصاص، ويسقطون

بعضهم سيصير حنينًا، يحاول اقتراف الحميمية بأثر رجعي

بعضهم سيصير خيالًا، ليؤوي الهاربين

بعضهم سيصير حطامًا، لا يأبه به أحد

الأذكياء سيعرفون ألا شيء جميلًا في إنكار الخسارة

البعض سيقبلها كجزاء عادل لاقتراف الأمل

والبعض سينضم سريعًا للآخرين

بينما الدبابات باقية في الشوارع، متعاهدة على حماية اليأس حتى الرصاصة الأخيرة

الملحمة لن تنقذ من لم ينقذها

والحب لن يقبل أن يكون محض تعويض عن الهزيمة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٣٠

تجلسين بجانبي، تتحدثين عن مشكلات ما كعادتك، تضحكين، تذهبين لتحضير شيء نأكله في المطبخ، في البيت الذي تركتِه منذ سنوات، يضيء ذلك في ذهني، فأعلم أنه حلم، أو أنني عدت بالزمن للوراء، نحن لم نعد نتحدث منذ كنتِ في ذلك البيت، لسنا متخاصمين تمامًا، ما جعلني شديد الاضطراب حول ما إذا كان وجودكِ الاضطراري في حلمي، من دون رغبة مسبقة، شيئًا ينبغي الاعتذار عنه، حتى لو كان جميلًا، علمتُ أنني لن أستطيع الحسم في مسألة كهذه بسرعة، فبكيت، ثم أتيتِ تحملين شيئًا عظيمًا في يديك، وتقولين: «دا أحسن دولفين هتدوقه في حياتك»، ثم ربَّتِ على ركبتي وأنتِ تجلسين، وأخبرتِني: «ما ترتبكش، إحنا في حلمي أنا»، كان الدولفين شهيًّا، وكنت أعرف أنه حلمي أنا، وفكرت أن أشكركِ على محاولتك لكسر الارتباك، ولكنني فضلت المضي كأنني صدقت أنه حلمكِ أنتِ، وهو ما يبدو لكِ أنني لم أُجده، لأنكِ فجأة سألتني: «الدولفين وحش؟ إنت مش بتاكل ليه؟»، فرددتُ: «لا، أبدًا، جميل جدًّا»، وأخذت ألقي بقطع الدولفين في فمي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بصراحة، أنا أكثر خجلًا من كتابة قصيدة عن النوم متوسدًا كتفيك على الشاطئ، أكثر احترازًا من الكليشيه من القول إنني أود أن أنام الليلة في حضنك، أكثر ضجرًا من المبادرة لمصالحتك مرة أخرى، لكن تعرفين، وكحل وسط، يمكننا أن نلتقي ثم نتحدث عن مآلات الحرب السورية (وسيكون ذلك الشيء الجيد الوحيد الذي نتج عن الثورة السورية بكاملها)، عن تداعيات التدخل الروسي في أوكرانيا (هل كان «بوتين» ليتوقع ذلك؟) حتى الأثر السيئ لسركون بولص على قصيدة النثر (وإن كان يمكنني أن أهتف وحدي حين أراكِ «يظهر ملاك»)، ثم أخيرًا نختلس في الوداع نظرة طمأنينة أن كل شيء سيكون على ما يرام، أنا ـ بشكل مؤقت ـ أرضى بهذا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أنا أيضًا، أؤمن بالإيماءات اللطيفة، تبادل الابتسامات الخافتة مع الغرباء، المديح المجامل للأصدقاء، والتغافل الضمني عن الهشاشات الذاتية، لخلق دوائر حميمية، لكني أؤمن كذلك أن المرء في حياته يحتاج إلى رفقة سلاح يكونون بالجوار، رفقة يمكنه أن يناديهم بصوته مجردًا، من أجل خناقة في الشارع، من أجل شؤون حياته الأكثر ابتعادًا عن المجازات، من دون أن يتردد، أي شيء أبعد من ذلك، وأي شيء عن الشوق والبعد والأصالة، أي إيماءات لطيفة، أي لقاءات حميمية تفصلها سنوات، أي رسائل عابرة للقارات، أي موجات كهرومغناطيسية، أي خراءات شبيهة، يمكن استخدامها في قصيدة كلاسيكية، يمكنها أن تصلح لرواية سيرة ذاتية سخيفة، لكنها ستترك المرء دومًا فريسة للهشاشة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٣٣

أعتقد أنني لم أعد أحبكِ، على الأقل لم يعد الأمر هستيريًّا، وأعتقد أنني أجد الأمر مربكًا ومؤلمًا كحبكِ تمامًا، أذكر حين أدركت في الصف الأول الثانوي أنني قد كففت عن حب هستيري لفتاة جميلة، كنت فرحًا بانتهاء ذلك، أشعر بأني خفيف، أنا لست سعيدًا بانتهاء هذا، لقد فقدت السردية الوحيدة التي كنت أؤمن بها، والملحمة الوحيدة التي أتحمس لها فعلًا. كان كل هذا الحزن والأمل في الوصال والاكتئاب وليالي الأرق والهستيريا إذن محض تفاصيل مملة في قصة غير متقنة، وليس عقدة في الأحداث بانتظار الأجمل، وإذن تكون هذه القصة فعلًا قصة حزينة، بلا أمل في أفق مستقبلي يعيد تأويل الحكاية من جديد، أنتِ أجمل وألطف من عرفت، وإن كنتِ بذلتِ كل جهدكِ لإنهاء هذه الحكاية مبكرًا، وقاتلت أنا للمماطلة أو لإعادة التفكير، فها أنتِ تتغلبين عليَّ مرة أخرى، لأعترف أنكِ كنتِ محقة كعادتك، هذا الأمر لن يصلح، أنا فعلًا شديد الأسف والخجل لكل هذا الضجيج الذي صنعته، ولعلكِ تغفرين لي ذلك، سنصير أشعارًا مهداة لقائلها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

القطار تحرك مرة أخرى، مقعد الفتاة الجميلة بجواره لا يزال دافئًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان علينا أخيرًا أن نتبع استراتيجية الحد الأدنى من الحنين، ليس كثيرًا جدًّا، بحيث يمكننا التخلص بسهولة من أحمال ماضٍ طموح في ملحميته، وتغيرات سريعة لواقع متفلت، ليس قليلًا جدًّا، حيث يمكن لتلك القسوة أن تتسلل إلينا، لنرى أن كل شيء زائل، ونفقد القدرة على حب الآخرين والتعلق بهم، الطمأنينة بينهم، ونحارب القسوة بأن نصير قساة، الحد الأدنى، الذي يجعل الطمأنينة ممكنة، لأن الحاضر يظل بوسعه أن يكون جميلًا، بوسعه أن يصير حنينًا قادمًا، وإذن فكرة التماهي معه تظل ممكنة، الحد الأدنى الذي ربما يجعل بإمكاننا أن نبتسم فعلًا من داخلنا للآخرين، لكن أيضًا يصير بوسعنا حال ابتعادهم أن يقتصر الوداع على تنهيدة طويلة، ثم لا شيء.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أكثر الأشياء بداهة: من يهرب من شيء، يبقَ أسيره.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

استمتعت بحبكِ، الذي لم يكتمل، كما يستمتع مصاب، بين كل حين وآخر، بتحريك ساقه المبتورة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٣٨

هذه أكثر فترات حياتي هدوءًا، لا أحلام ولا هستيريا، مرور خفيف، بلا حماسة، بلا ضجر، لا أشباح حب قديم مختبئة خلف جدار، ولا أشباح جديدة تعبر في الضباب، ليست سيئة بحيث يمكن إدخالها في سياق قصتي الحزينة، وليست جميلة بحيث يمكن اعتبارها نهاية لها، وليست مختلفة بشكل يمكنها من صنع بداية حكاية أخرى، هذه الأيام، لو قُدِّر لي أن أعيش بعدها، سأنساها تمامًا، ولن تستطيع حتى أن تخلد نفسها كحنين زائف، أنا إذن أعيش بوعي تام، أيامي المنسية، وفي هذا الوعي وحده بعض المتعة والعزاء.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٣٩

لا، لم يكن النسيان لعبة عادلة بيننا، انطلقتِ مبكرًا عن الصفارة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سيكون عليك حين يأتي زمان الوحدة ألا ترتجف، ولا تبحث عن أصدقاء الأسبوع الواحد، أو رفاق الجلسة الليلية الذين تتضجر منهم، سيكون عليك أن تتعلم ترويض التنانين، الوحدة تنين، كل ما سترميها به ستأكله وتكبر، كل الحواجز التي ستصنعها ستقربها منك أكثر، وكلما ظننت نفسك تزداد خبثًا، ستزداد ألاعيبها، سيكون عليك أن تتقبل هشاشتك بشكل تام، وأن تنهزم بيسر، من دون مقاومة، ودون ضجيج، لا تبكِ على الزمن المسكوب، ودع الأيام تمر، لا تجرِ هنا وهناك بحثًا عن أفق جديد، لا جدوى، حين يأتي الأوان، الأفق الجديد سيركض خلفك، وحينها سيكون من الأفضل ألا تكون منهكًا من علاقات مزيفة طويلة، أو حذرًا أكثر من اللازم نتيجة لضياع مجهودات أيام الوحدة كلها من دون معنى، وبروح شيخ زاهد ذهبت دنياه، سيكون عليك أن تحتفظ بقلبك شابًا، مستعدًا للفرح كأنه يدخل الحفلة للمرة الأولى.

28%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

غنِّ لي أغنية جديدة

حتى لو كانت سيئة

وارقص معي رقصة مرتجلة

حتى لو سقطنا

ولنعبر معًا، أراضي أخرى

حتى لو أضعنا الطريق

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مـن منطقـة وسـط بـين هـؤلاء الـذي يخفـون قلقـهم بـالاحتماء بالمقاعـد الأخـيرة، ثـم السـخرية مـن الآخـرين، وهـؤلاء الـذين ينـدمجون ـ مـرتبكين ـ مـع الشـائع تمـامًا، يمكن الحـدس بجمال الكليشـيه وزيفـه، لكـن، وبشـكل شـخصي تمامًا، أجـد هنـاك شـيئًا جميلًا جدًّا. من الصعب مراوغته. في ارتكاب الكليشيه عن عمد، التعبير عن العواطف بأكثر المفردات ترددًا، بخجل ما، وباستسلام تـام، ينبغـي فعـلًا، وعلـى الأقـل، احتـرام رحلة البشـرية الطويلة للوصول إلى الكليشيه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحزن ندبة في الروح، والخوف صوت ذئب في طريق القلب، والمحبة ـ صحيح ـ قوية كالموت، قاسية كالهاوية، لكنها هشة كتردد ابتسامات الأصدقاء القدامى، مربكة كمصافحات العشاق السابقين، أتسكع يوميًّا في شوارع أظن أنني لن أطأها في سياق حياتي اليومية الرتيبة، لأذكِّر نفسي بكثرة الاحتمالات الضائعة، ماذا جنينا من الملحمة غير صوت الذئاب؟ ماذا تبقى من الحب سوى حكاية تمنطق الاكتئاب؟ أفسد احتمال اليوتوبيا كل شيء، كل جمال، وعد يوتوبيا مؤجل، مثلما السراب جميل، وعد ارتواء، والوجه الجميل، وعد قبلة، ماذا بعد الهرولة خلف يوتوبيا يحملها التاريخ في طرف خيط معلق بعصا، كصبي يلاعب كلبه معلقًا عظمة في الخيط، كلما تقدم كلبه خطوة، تراجع خطوتين وضحك، أنا لا أريد أن أصير حكيمًا في نهاية الطريق يا «كفافيس»، أين الرحلة الجميلة يا «إيثاكا»؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بنت تقف مرتبكة في مواجهتي في حين يُصعدني السلم الكهربائي إليها، عادية الجمال، لكن جذابة جدًّا لي، خصوصًا ما يخص ارتباكها هذا، كانت تنتظر أن يبدأ الدخول للفيلم، الذي للصدفة، كان الفيلم الذي أنوي دخوله. من النظرة الأولى عرفت أن لها حركات الوحيدين المرتبكين الذين يحاولون التخطيط لكل حركاتهم، الأمر الذي يجعلهم مفضوحين تمامًا. بالداخل، انتظرنا وقتًا داخل السينما قبل أن يبدأوا العرض، كانت تجلس على طرف الصف الذي أمامي، التفتت . بصرامة تناقض طبيعتها . إليَّ ونظرت إليَّ بعتاب، أشعرتني بالذنب، على الرغم من أنني لم أعرف تحديدًا ماذا فعلت، يبدأ الفيلم، أنا في أشد لحظات إحباطي العام والخاص، ولا يمكنني الانتباه لشيء. تبدأ الاستراحة، أخرج، أدخن سيجارة، تخرج هي لا تعرف تحديدًا لماذا، وإن ظنت أنها يجب أن تفعل مثلما يفعل الآخرون لكيلا يلاحظوا ارتباكها غير المبرر، قبل أن تحاول أن تذهب لشراء الفشار، الرجل غير موجود للحظة، ما يشعرها بارتباك شديد، لا يمكن فهمه بسهولة من قِبل هؤلاء الأكثر عفوية والأقل حذرًا من المحيط العام، أطفئ السيجارة وأنا أفكر أنها لو عرضت عليَّ في نهاية الفيلم الهروب معًا لأي مكان، لن أتردد لحظة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لا تبتسم لي أكثر، إن لم تكن ستقبِّلني

لا تقطع معي خطوة أخرى، إن لم تكن ستكمل الطريق

لا تقدم لي كأسًا أخرى، إن كنت تخجل أن نخرج لنغني ثملين في الشوارع

ولا تهدر أوقاتي، لتقنعني بأشياء، لن نقاتل من أجلها حتى النهاية

31%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أصل تراكم الهزائم، انعدام قدرة المرء على الاستسلام الصادق لخيبة الأمل مهما ادعى ذلك، وأن الأمل الصفري، الأمل المصاحب لمحض وجود الإنسان، هو شيء لا يمكن . على الرغم من كل المراوغات اللغوية . التفلت منه تمامًا. وككل سرد درامي محكم، لا يهجم هذا الأمل الصفري إلا في أقصى لحظات التيقن من الإفلات النهائي منه، هو أذكى من أن يعطي غريقًا قشةً ليتشبَّث بها، وإذن يمكن له أن يرفضها بسهولة ويستسلم لغرقه، هو يبعث إليه من يبتسم له من الشاطئ، أمل أخرق ومنقطع الصلة تمامًا بالمشكلة، وهذا تحديدًا ما يجعله شيئًا لا يمكن الهرب منه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قلبي مليء حتى آخره بالحب والأغنيات

أحلامي تهدهدها الموسيقى

وأعرف أنني لو مت، سأموت وفي القلب حسرة

أن هناك جمالًا لم أرَه

أصدقاء محتملين كانت ستنشأ بيننا صداقات ملحمية

وليالي كان يمكننا أن نشرب فيها، ونمشي ثملين منتشين في الشوارع

وسيعذبني أن هناك، في بلدة بعيدة جدًّا

بلدة لم يسمع أهلها العربية من قبل

فتاة جميلة جدًّا

لن أقبِّلها أبدًا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يقولون إنه في بداية العالم كانت المشاعر أكثر مادية، الحزن كان يتحوَّل إلى أشجار ذات ظلال لا تنتهي، يجلس فوق فروعها الناس ليواسوا بعضهم بعضًا، وليختبئوا مما يخافون، بينما في فرحهم كانت الأرض تتحول إلى حلبة رقص تشارك فيها الملائكة، وعندما يخافون كان يحدث شجار طويل بين الشمس والقمر، فيتساقط الضوء على بيوت الناس، ويحرقها، الحنين كان سهامًا تأتي من السماء لتجد مكانها في قلوب الناس، ولم يكن يحتاج منهم الأمر سوى أن يخلعوها من مكانها، فتترك حفرًا صغيرة تنبت فيها زهور اختلف اللاحقون في رواية ماهيتها، بعضهم قال: «كانت زهور الطمأنينة»، وبعضهم قال: «كانت زهور المواساة»، والبعض قال: «كانت أثرًا لابتسامة عابرة لله، لحمق خلقه».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

دون مبرر لمرور الزمن، كيف كان للقلب ألا ينهشه الأسى؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كنا نجلس في مطعم غريب، نربع أقدامنا على الحصيرة، أنتِ على الجهة الأخرى من الطبلية التي يضعون عليها الطعام، تمسكين كتابًا وتتظاهرين بالقراءة، حتى لا أستطيع أن أفتح الكلام معكِ، فيما أفكر أن ما تفعلينه طفولي جدًّا وشديد السخافة، وإذن جميل بشكل ما. أسألكِ: «لكن ألم يكن يجدر بكِ عدم المجيء ما دمتِ غاضبة هكذا؟»، تحاولين التظاهر مجددًا بعدم الانتباه، قبل أن تأخذي شوكة من أمامك وتضعيها في داخل الكتاب عند الصفحة التي توقفتِ عندها، تبتسمين، تعاتبينني بأنه كان عليَّ الاستمتاع بالصمت الجميل للحظاتنا الأخيرة معًا، قبل أن تلقي عليَّ اللوم بتخريب كل شيء.

حينها فقط أنتبه إلى أننا نجلس وسط بيت مهدم به آثار رصاص على جدرانه، وشجر صغير جدًّا بحيث يمكننا الاستناد إليه ونحن جالسون، وأفكر فيما إذا كنتِ قد استخدمتِ هذا الديكور كمجاز عن علاقتنا، أسألكِ عن ذلك، لا تجيبين، وتكتفين بهز كتفك بلامبالاة، قبل أن تعيدي فتح الكتاب مرة أخرى، وتعيدي عليَّ نصيحتك، أنفجر غضبًا، أقطف بعض الثمرات الغريبة من الشجرة التي أستند إليها وأقذفك بها، لكنها تذهب إلى الكتاب، ثم تكون جزءًا من غلافه، «الأمور تصبح أغرب حين تشارف على الانتهاء»، حتى عنوان الكتاب تستخدمينه كحيلة مجازية أخرى.

تطلبين مني الجلوس بجوارِكِ وقراءته معكِ، تقبِّلينني فجأة، تقومين لتخبريني بأن علينا الحفاظ على هذه النهاية كما هي، وأن عليَّ أن أتخيل أن نقاشًا حادًّا دار بيننا، لم يكن لنا بعده أن نلتقي مجدَّدًا، كنت أحاول مجادلتك بأن الأمور لا يمكنها أن تسير هكذا، وأن فرقًا دقيقًا سيظل موجودًا بين أن نخوض نقاشًا ما ترين أنه سيكون حادًّا وينهي كل شيء، وبين أن نتواطأ على أن ذلك النقاش قد حدث من دون أن نخوضه، حركتِ رأسكِ ممتعضة، وبحركة تشيرين بها إلى أنني دائمًا أميل لتعقيد الأمور، في اللحظة التي أكتشف بها أن تلك الحركة جديدة عليَّ تمامًا،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لأكتشف أيضًا أن هذه المرة الأولى التي نلتقي بها، أخبرك ذلك لتقولي لي إن ذلك الصمت الجميل قبل النهاية المتوقعة لقصة لم تحدث هو أفضل ما كان يمكنه أن يحدث، الأمور تصبح أجمل حين تشارف على الانتهاء، أقبلك، فيما تتسلل يداي لظهركِ بهدوء لضمك إليَّ، وأهمس لكِ بأن الأمور يمكنها أن تظل تشارف على الانتهاء حتى الأبد.

أتعثر في شجرة، أسقط، تأخذين بيدي لأقوم على واقع آخر، مطعم حديث وصاخب، تطمئنينني بأن رأسي الذي سقطت عليه بخير، تجلسينني في مقعدي وتجلسين بجواري، هذه المرة الأولى التي نتقابل فيها، سيكون طريقًا طويلًا لنصل معًا لذلك البيت المهدم، أفكر بسينمائية أن أقول ذلك لكِ في نهاية القصة، قبل أن أدرك أن هذه الأشياء ستفسد كل شيء في بدايته، أمامكِ كتاب ما، سأحاول طيلة جلستنا ألا أنظر أبدًا إلى عنوانه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وتذكَّر دومًا أن بوسع جمال عابر، في لحظة خاطئة تمامًا، أن يسبِّب حزنًا بلا نهاية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تخيريننني بصرامة بين أن نتزوج حالًا، من دون أن أتردد لحظة، وأن ينتهي كل شيء الآن وهنا، أخبرتكِ أن الأمور أعقد من هذا، أنني حلمت بهذا المشهد بالأمس، وأول أمس، ولذلك لا يمكنني الجزم تمامًا إن كنتُ أحلم مرة أخرى، أمسكتِ بيدي، ومررتِها على وجهك وسألتِني مبتسمة: «ودا حلم برضه؟»، لكنه كان حلمًا، استيقظت منه لأجدكِ بجواري في سريرنا. كنا قد أتينا بالأمس مرهقين تمامًا، لكن ليس للدرجة التي تمنعنا من الخلاف، الخلاف الذي أحضر لذاكرتي هذا الحلم القديم، أوقظك وأحكي لكِ للمرة الأولى الحلم وما منحه لي في ذلك الزمان من الأنس والطمأنينة، وأنني حلمت به مرة أخرى الآن، لكنه لم يمنحني الأنس القديم، وأخافني جدًّا، إذا كان ما نعيشه الآن، وذلك الدرب الطويل الذي أوصلنا هنا، هو حلم أيضًا، تقبّليننني فجأة ثم تسألينني ضاحكة: «كدا لسه حلم برضه؟»، لكنه كان حلمًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تعرفين بالتأكيد، عن الشجرة التي تخفي الغابة وراءها. في حياتي، أنتِ الشجرة التي تحجب الصحراء، فإذا التفت عنكِ، أو ملتِ عني، أُترك، خائفًا، أحدِّق إلى الفراغ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

للذكرى البعيدة، الجميلة، المفاجئة، المندفعة بقوة ومعها عالمها كلـه، لحظـة هاربـة بكـامل سـياقها، عقلـك الطفولـي، وأحكـامك القيميـة، القـديمة، مشـاعرك نحـو أصـدقاء لا تـدري مـاذا فعلـت الحيـاة بـهم الآن، وتخوفـك المزمن من انفلات الأشياء، لا ترى صورة الماضي من بعيد، كما تكون الذكريات، بل تكون فيه بذاتك الماضية، لحظة، لا يمكنها بعد تجليها، سوى أن تخلق حنينًا مثابرًا لومضتها الأخيرة، لا حدوثها الأول، حنينًا لحنين ينجح فعلًا في إعادة خلق ما مضى، بما فيه أنت.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٥٥

ليس هناك ما هو أكثر طمأنينة من ألمٍ يزول.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أخبركِ أنني بحاجة إليكِ، أن تتركي كل التزاماتك، اليوم مساءً، الساعة السابعة، لأخاطبكِ في قصيدة، هي ليست عنكِ تمامًا، على الأقل ليس بشكل مباشر، فتخبرينني بأن بوسعي الكتابة إليكِ، من دون هذا الطقس الغريب.

أدق بقدمي على الأرض، وتدقين بيديكِ على الطاولة، أشعل سيجارة وتذهبين لمشاهدة فيلم ما، أفكر في طريقة جديدة لأملأ فراغ روحي من دون الاستعانة بكِ، لهذا إذن كان الشعراء يناجون الليل والقمر والحمامات التي تحط فجأة على الشباك، وتفكرين في طريقة جديدة لملء فراغك من دون الاعتماد على الثقة التي يكسبك إياها صدك لي، أفتح رواية طويلة، لأجد أحد أبطالها يبدأ في كتابة رواية طويلة، حيلة أخرى لملء فراغ الروح، أشتري سلحفاة صغيرة أضعها على الطاولة، وأُسمعها نكتة قبل أن أنام، فأحلم بديناصورات ضاحكة، وتطلقين أسماءً على أقلامك لتكسبيها أرواحًا لم نعد نمتلكها.

أتخلى عن حدتي القديمة في الحكم على الناس، أو أدفنها عميقًا داخلي، أهز رأسي لكل من يطلب رأيي: «لطيف جدًّا ما تفعله»، من دون أن أكون مخادعًا، بل بتقدير حقيقي لجهود البشر المبذولة لمراوغة الخواء، حتى شغفي القديم بالسخرية من شعراء «الرجل الذي مر أمامي»، الشعراء الخاوين الذين يجلسون صباحًا على مقهى فارغ ويحاولون كتابة قصيدة جديدة، فينظرون إلى الأمام ليروا رجلًا ذاهبًا إلى عمله، فيبدأون الكتابة: «الرجل الذي مر أمامي، مشوَّشًا من دخان السيجارة»، حتى هؤلاء الجالسون في المقاهي، متخفين وراء كتاب، ليصطادوا أناسًا أبرياء ويضعوهم في قصائد ركيكة، يجمعونها في دواوين لن يقرأها أحد، فيصطادهم آخرون مثلي، ليضعوهم في كتابات أخرى، حتى هؤلاء أتسامح معاهم.

أدق بقدمي على الأرض، وتدقين بيديكِ على الطاولة، أضع كوب الشاي الساخن بين قدمي للدفء، وتحلمين ببراكين تحرق العالم،

35%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الرجل الذي رأيته، كان يتوقع أن أضعه في قصيدة، لذلك كان يبكي، والبنت التي لوَّحت من بعيد، كانت تحاول أن تأخذ مكانه، السلحفاة التي اشتريتها، تركتها في المنزل الذي تركته، من دون أن أفكر في إخبار أحد، صاحبة المنزل التي اتصلت لتخبرني أنها قد وجدت سلحفاة في غرفتي، وأنها حتمًا تعود لي، نفيت لها ذلك، فتساءلت: «أُمال يعني ظهرت لوحدها؟»، صدقت على كلامها، وأخبرتها أن هذه السلحفاة، أخيرًا، تفسِّر لنا الخلق الأول للعالم.

والمرأة التي ظلت تعنف ابنتها صارخة، طالبة منها أن تحافظ على نظام العالم ونظافة الحياة، كانت لتوها قد عادت من منزل عشيقها، هي أخبرتني بذلك، متحفظة على ذكر اسمها.

أدق بقدمي على الأرض، وتدقين بيديكِ على الطاولة، وأخاف إن التقى لحنانا مصادفة، أن يغير لقاؤهما ذلك العالم كما نعرفه للأبد. لي صديق، فنان ومتوحِّد، كلما أنهى لوحة كان يتصنع الخطأ ويرسم خطًّا عشوائيًّا فيها، ليقول إن اللوحة فسدت منه، كان متيَّمًا بالكمال، ويظن أنه إن رسم لوحة كاملة من دون تشويش، فإن لوحته يمكن وقتها محاسبتها نقديًّا على عدم الكمال، كان خطًّا يمنحه السكينة والطمأنينة، وهم أنه قد فوَّت الكمال عن قصد، بينما يرجو في أعماقه أن نخبره أن هذا الخط قد جعلها أكثر كمالًا، يجرح لوحته، كما يجرح الروائي روايته حين يظهر فيها، ليعطي انطباعًا أنه لا يهمه أن يخلق عالمًا كاملًا ومغلقًا ومعتمدًا على نفسه، إنما يقص قصة طويلة ليس أكثر، وكما تخترع الجميلات عللًا وهمية ليشعرن بالمساواة والتضامن مع بقية العالم، وإذن بالطمأنينة.

أدق بقدمي على الأرض، وتدقين بيديكِ على الطاولة، الرجل الذي مر أمامي، مشوَّشًا من دخان السيجارة، كان ينظر إلى فتاة بعيدة تلوح لصديقتها التي تنظر إلى عجوز يعبر الشارع على مهل، كسلحفاة مهملة في بيت تركه صاحبه، ناظرًا إلى زوجته على الرصيف الآخر، الزوجة متململة من بطء حركاته، تدق بقدميها على الأرض، وترفع عينيها للأعلى لترى شابًّا بملابس

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

داخلية في البلكونة، يتحدَّث مبتسمًا في الهاتف، ويدق بيديه على السور، وينظر إلى الحمامة التي حطت لتوها على شباك امرأة تعنف ابنتها، وتتذكر عشيقها الذي قطعت علاقتها معه منذ ساعات، عشيقها الذي كان من المفترض أن يكون الرجل الذي مر أمامي باكيًا، وأن نراه في عينَي المرأة التي تراها الفتاة منعكسة في المرآة، وهي تمرر وقت تعنيف أمها لها، لولا أنني أريد أن أجرح اللوحة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كلما عبرت شارعًا في هذه المدينة، ينبت عضو غراب على كتفك، جزء من قدم فجزء من جناح فجزء من عين فجزء من منقار، فإذا قطعت كل شوارعها، أصبح على كتفك غراب كامل، يقول أناس: «لم يعد لديك ما تفعله غدًا، فهو ينتظر موتك»، يقول أناس: «فقدت المدينة غموضها للأبد، وينتظر موتها»، ويقول آخرون: «تزرع موتها فيك»، لكن للآن لم يرَ الناس قَطُّ رجلًا يتجوَّل بغراب كامل على كتفه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خطأ طفيف للذاكرة، يدفعكِ إلى مقهى مختلف عن الذي تظنين أنكِ جالسة فيه

خطأ طفيف في توقيت الهاتف، يدفعني، قبل موعدي، للمقعد الذي يواجهكِ

خطأ طفيف للنادل، في حركاته الأكروباتية، وهو يرجو أن يثير إعجابك، يسقط كل ما يحمله

خطأ طفيف في ردود أفعالنا، يجعلنا نترك النادل، ونتبادل الابتسام

خطأ طفيف يصور لنا أن الأمور يمكنها أن تذهب أبعد من ذلك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حياتي

كخيط خوف يربط الأيام ببعضها

الحب، العقدة الأولى

إن فككتها، انهار كل شيء

39%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أترنَّح، مثل حلم ينهار في عقل امرئ بدأ يستيقظ، وتثقلني أشباح العوالم الممكنة، أستند إلى طاولة فتسقط، إلى حائط فيئن، إلى صديق فيتلاشى، وظلي المصاب بالبارانويا، كلما رآنا ضوء، قال أرى ظل ذئب، لنهرب، أفتّت روحي ثم أخبئها منثورة في شقوق البيوت القديمة، وفي جيوب المارة، وفي أعين الجميلات، وألقي بجسدي على الأرض، أرتطم لأنام، وأحلم بقطط متكلمة وحكيمة، تدخن السيجار، وتطلب مني أن أكف عن الاختباء وأخرج لأرى العالم، نخرج، لنرى عواصف بركانية تأكل كل شيء في طريقها، صديقي القط يدخن سيجاره مطمئنًا وشبه سعيد. وصديقة أحلامي، تجلس، كعادتها، مستندة إلى جدار مهدم، تمسك بجيتار، وتغني: «ألم أقل لك يا حبيبي، كل حبي لك زائل»، نتبادل الابتسام، ثم أترنح.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بخفة تضعين بجواري جنيهًا هو أجر مشوار الميكروباص، بعد أن اكتشفتِ أنني في الغالب قد فقدت محفظتي، أكتشف الجنيه كأنه سقط مني، ولا أشكركِ، ولا أتنبه لذلك إلا لحظة نزولي منه. أتمشى على الكوبري خالي الذهن، أمر على بيت الفتاة التي أحببتها قبلكِ، أحببتها قبل كل شيء، أبطئ قليلًا علَّها تظهر فجأة. أتجاوز بيتها، بخيبة أمل غير جديَّة، وأنسل إلى بيت أحد أصدقائي، بينما يحضر الشاي أجلس، وحينها فقط أفكر أن علاقتي بكِ للمرة الأولى منذ خمسة أشهر. هي بداية دخولنا الكلية . أصبح لها وجه مادي ما، وإن لم يزِد ذلك عن مساعدة زميلة زميلها في التخلص من ارتباكه (الذي بالمناسبة أظن أنكِ بالغتِ في تخيله)، أعتبر هذا نصرًا جزئيًّا، وأبتسم، فيما يدخل صديقي حاملًا الشاي صاخبًا ومتسائلًا بلهجة تدَّعي الخبث عن سبب فرحتي البادية. أخبره بالقصة، موضحًا دوركِ في المشهد، لكن من دون أن أقص عليه دوركِ الأكبر في المسرحية، يستنتج هو بقية الحكاية، متخيلًا شعورًا غامرًا متبادلًا بيننا، ويبدأ في السخرية مبالغًا في دلالة فعلها، ليشعرني هذا بإنجاز متخيَّل، أصبحت لقصتنا المجردة خلال يوم واحد تفصيلة مادية وتفسير خاطئ لها من قبل شخص ما، لا تتطلب الأساطير أكثر من هذا لتبدأ به.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كلما التقينا صدفة، وجلسنا معًا، متردِّدين، وخجلين من ارتباك صداقتنا، وعاجزين عن التواطؤ على النسيان، لكيلا نشعر بخيانتنا لذواتنا التي مضت، فكرت أن أميل إليكِ، وسط كل ذلك الارتباك كله، وأخبركِ كتنبيه أخير، كنكتة غير موفَّقة، أو كحضور لحظي مندهش لأشباح أنفسنا القديمة: «شفتِ الزمن بيعمل إيه؟».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المفارقة، أن الرجل، الذي أصبح بفعل وطأة الزمن عقلانيًا صارمًا ضجرًا، كان عليه أن يكابد أصداء ملاحم شعرية لمراهق هش شـديد الطمـوح والانـدفاع والإصـرار علـى صـياغة قصـة حـب مستحيلة بخيالات ملحمية لا يمكن الاقتراب منها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٦٤

أين ستذهب النكات التي فاتت لحظتها المواتية

الاعترافات التي لم يُدلَ بها في الوقت المناسب

القبلات التي تأخرت ثانيتين، فتأجلت للأبد

أين سيذهب الطريق، الذي كنا سنقطعه معًا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يكتــب المــراهقون القصـائد لـيقبِّلوا الجمـيلات، يعجبـهم الأمـر، فيصبحون شعراء، يقبلون الجميلات ليكتبوا القصائد.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لـو رأى المـرء، ولـو لمـرة واحـدة، جمالًا قـد بـدأ، للتـو، يعي ذاتـه، صارت حياته كلها مبررة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يمكن للزمن أن يسجل انتصاره الساخر مرتين، مرة بتحويل ما لم يكن جميلًا إلى جميل مفجر للحنين، ومرة باستخدام هذا الحنين نفسه، ليخفت أي حماسة تجاه كل جميل قادم، باعتبار أن هذا الجميل يجيء بعد نهاية حفلة ما متوهمة، حفلة لم تُقَم قَطُّ.

41%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بقلبي وطأة، لا يمكنني، بعد الآن، أن أصنع منها شيئًا جميلًا مثلكِ

حزن، لا يمكنني التلويح به، مرة أخرى، لإثارة انتباهكِ

أغنية، لا يمكنني دندنتها، ثانيةً، ناقمًا من إعراضكِ

وعشرات التأملات الفارغة مثل هذه، لن يمكنني مناكفتكِ بها

ماذا سأفعل، إذن، بعالم كامل قد توقف، في قلب خالقه، إلى الأبد

عالم كامل قد توقَّف، دون أن يلاحظه أحد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لا تحتاج إلى أن تتقن كل لغات العالم، لتكتشف أن الجميع يلقون القصيدة نفسها بطرق مختلفة

لا يجب أن تكون دارسًا للموسيقى، لتعرف أن من يدق على الأرض بقدميه، ومن يعزف في الأوبرا، يجمعهما لحن واحد، حزن واحد

ليس مهمًّا أن تعايش كل شعوب الدنيا، لتميز بسرعة من تهدهده الفرحة

وليس ضروريًّا أن تراقص كل نساء الأرض، لتعرف من أين تأتي كل تلك القصائد، كل هذا الحزن، كل ذاك الفرح

لا تحتاج إلى من يخبرك، أن آلافًا غيرك، يكتشفون كل ذلك، كل لحظة

أنت، بالتأكيد، لست فريدًا جدًّا

أنت، أيضًا، لست وحيدًا جدًّا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الغنـــاء يعلـو، أصـدقاء وأقـارب يقـرعون الطبـول، وجمـيلات مجهولات يرقصن في المركب الذي يبتعد رويدًا عن الشاطئ، أنـتِ تـأتين متمهِّلة على الطـريق الخشبي المفضي إلى مرساة المراكب، تصلين إلى الحافة مبتسمة، وتكملين السير. الماء ينبت أشجارًا على وقع قدميكِ، الطبول تخفت والجميلات يتوقفن عن الرقص، وصديق يربِّت على ظهري ضاحكًا: «الحكاية دي محتاجة قصيدة كلاسيكية»، أخبره ألا حاجة إلى الشعر بعد تحول المجاز الكليشيهي إلى واقع. المركب تزداد سرعته في الابتعاد، في حين تظل خطاكِ هادئة وثابتة، بمرور الوقت، كانت الخضرة خلفك تتحول إلى غابة فاتنة أنتِ في مقدمتها، كأنكِ تقودين جيشًا للانقضاض على البحر، الغناء يعلو مرة أخرى، وأنا في مكاني أستعد للهزيمة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

النكتة التي أفشل في تذكرها دائمًا، وتضحكني كل مرة

والجملة الجميلة التي يمر طيفها على بالي، فينشرح قلبي للجمال

الأغنية، التي نسيت كل كلماتها، ولا أتوقف عن دندنتها

الوجه الجميل الذي ابتسم لي ثم ذاب، لأنتظر صدفته إلى الأبد

المرأة التي عبرت بسرعة، لتشعرني ذكراها، الباهتة جدًّا، بالإثارة

بطل الرواية، التي نسيت اسمها واسمه، ويشعرني بالمؤانسة، كلما صرت حزينًا

الأشياء التي لا أملكها أبدًا

الأشياء التي لا أفقدها أبدًا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الروايات التي تُكتب لتمرير جملة جميلة في سياق ما

والأغاني التي تعيدها كاملة لسماع مقطع معين

الشعراء الذين لم تبقَ منهم سوى قصيدة واحدة

والزحام الذي تحتمله لرؤية وجه مألوف محدد

كل ما يبدو، أنه قد أُعد كاحتفال أسطوري مسبق بظهور جميل ما

وكل جميل إن غاب، انهار كل ما حوله

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولعلكِ تعرفين ما يشتهيه القلب، ولعلكِ تعرفين ما يضيعه منا مرور الزمان.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سنفترق، وإذن لن تأتي الفرصة لأخبركِ أن هذه كانت أكثر فترات حياتي طمأنينة، ستعاقبينني بالغياب، وأعاقبكِ بألا أخبركِ ذلك أبدًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يمكنني التأريخ لحياتي بمرات المشي المطول التي استغرقتها في التفكير، وحيدًا من دون جدوى، المرة التي رأيت فيها صورتكِ للمرة الأولى، فجبت شوارع المنصورة ثملًا وخائفًا، والمرة التي رفضتِ فيها الزواج بي، والمرة التي أحببت فيها فتاة أخرى، والمرة التي سرت فيها لساعات مع فتاة ثالثة، مرات التفكير في الثورة، ومرات التفكير في الله، مرات التفكير في الانتحار، ومرات التفكير في كيف لم يؤثر كل هذا الضجيج الذي صنعته فيكِ، ومرات الندم على صنعه، مرات التفكير في الأفلام، ومرات الاندساس بين الناس والرغبة في التحول إلى شخص من هؤلاء الآخرين، مرات الحيرة، مرات التفكير في الهجرة، ومرات التفكير في قصيدة، ومرات الانتظار بلا هدف، ومرات توزيع أحلام اليقظة على السائرين، ومرات الهروب المؤقت جدًّا، مرات التفكير في الارتباط بأنتِ الأخرى، ومرات محاولة استكشاف حقيقة مشاعري نحوكِ، ومرات السخرية من أحلامي، ومرات الاعتداد بإنجازات ضئيلة، ومرات اللامبالاة الهادئة والمتصالحة مع مرور الأشياء، ومرات الجلوس على مشارف بحيرة القلب وإلقاء الحجارة، وتبدو لي كل أنشطة حياتي الأخرى، كفواصل، قد تطول أحيانًا، بين محاولاتي للبحث عن ما فقدته في الجانب المضيء، في الجانب الذي لم تسقط فيه روحي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يبدو لي عادلًا، أنه، وقبل النوم مباشرةً، يصطف أمامنا كل ما نعرفه، ممر طويل مليء، به طاولات، عليها تجلس لحظات جميلة ومخيفة وسيئة، أصدقاء قدامى وجدد ومقربون وراحلون، وفتيات جميلات وغاضبات ونادمات ومترددات، وعابرون لم نحفظ أسماءهم. في هذا الممر يمكننا بسهولة أن نلتقط ما نشاء من لحظات، مع من نشاء من أصدقاء، ومن نشاء ممن أحببناهم، لنصنع قصة ما، نضيف العابرين إليها لتبدو حقيقية فعلًا، وتتيح لنا إن أردنا أن نطلق أحقادنا تجاه من نريد في شكل حبكة روائية محايدة أو في شكل تحليل نفسي لإحدى الشخصيات، لا يعدو، في حقيقته، أن يكون مجرد شتيمة مطولة، كما تتيح لنا القصة أن نحيي من نريد بجعله ينطق بجملة حكيمة ما، أو بجعل امرأة جميلة جدًّا تقع في غرامه. هذا، قبل أن نستسلم للنوم، لنعطيهم جميعًا، بدورهم، فرصتهم في الانتقام.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يتضاحكون على طاولة الغداء، فأشعر بالغربة، أمرر لكِ ورقة كتبت عليها أنني أحبكِ، وأننا يجب أن نغادر. نتركهم، تصعدين بي لأعلى عمارة، نقف على الحافة، تقولين لي: «هز جناحك»، أتعجب، فتهزين جناحكِ وتطيرين ضاحكة، أهز يدَي اللتين تتحولان مع كل محاولة إلى جناحين فعلًا، لكني لا أطير، أعطي ظهري للفراغ، وأهبط بهدوء على الهواء، كأنني أستلقي بظهري على البحر، أنجح فعلًا، أحرك ساقي وأجدف في الهواء، بينما تحركين جناحيكِ بالأعلى وتقولين: «مش بطال بالنسبة لمبتدئ». تطيرين بعيدًا، أفكر في أن أسبح في الهواء وراءكِ، قبل أن أتذكر أنني تعاهدت مع نفسي بعدم ملاحقتكِ مرة أخرى، أعود إلى الطاولة فأجدكِ هناك تمسكين بالورقة التي كنت قد أعطيتها لكِ، تفتحينها بحماس المرة الأولى. أقبض على يديكِ لأمنعكِ من ذلك، وأحاول خطفها منكِ، نتجاذبها بقوة، فتمتد بقدر ما نبتعد عن بعضنا، تستطيل بين أيدينا المتباعدة لتكون رسالة طويلة جدًّا، الكلمات تخلق نفسها كلما ابتعدنا خطوة إضافية، تقرئين الكلمات الجديدة التي ولدت نفسها بنفسها، وتنظرين إليَّ مؤكدة: «مش بطَّال بالنسبة لمبتدئ».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تحكي قصيدة لشاعر قديم عن صباح هادئ تمر فيه أمامه امرأة جميلة، الشوارع، على حد قوله، ساكنة تمامًا، والجو مائل للبرودة وأصوات عصافير قريبة، وأنا أعرف أن امرأة جميلة لم تعبر من أمامه، أنه كان وحيدًا، وحزينًا، يفكر في قصة ليحكيها، وأن الهدوء من حوله خدعه فظن أنه يعيش لحظة جميلة ينبغي أن تخلد في قصيدة، خلق من ذهنه امرأة جميلة على الورق تمنى لو عبرت أمامه فعلًا. وعلى الرغم من أن الخدعة لم تتمكن مني، فإنه بذلك قد يكون نجح في مسعاه، إذ إنني، بشكل مراوغ تمامًا، أرمم اللحظة الأصلية، أرمم ما خجل منه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بالنسبة إليَّ، فالكتابة عملية معقدة للموازنة بين طبيعة متحفظة، راغبة في حميمية ضيقة، وضرورة أن يسقط المرء عن نفسه كل ما لا يقوى على احتماله، أن يسكب من داخله ما يفيض به، فقط ما يفيض، ليس كل الكأس، ليس كل الألم، ليس كل الغضب، ليس كل الضجر، وليس كل الحب، فقط ما يفيض منها، المقدار الزائد الذي يجعل من المستحيل المحافظة على الكأس من دون أن تُسكب كاملة. وبالتخلص من هذا المقدار، يمكن للمرء العودة إلى نفسه، إلى كؤوسه الخاصة، ليست فارغة تمامًا بحيث يجد نفسه خاويًا يحدق إلى هاوية روحه، وليست مليئة جدًّا بحيث يغرق في بحور ذاته، درجة بين ذلك، تسمح للمرء أن يجعل الكأس بجواره استعدادًا لليلة طويلة، غير خائف من نهاية الكأس سريعًا، وغير خائف على نفسه من الغرق فيها.

وفي حين يمكن للناس أن يتخلصوا مما يفيض بهم، عن طريق إلقائه من النافذة غاضبين وهم يصرخون على العالم، أو جرجرته في الشوارع وتركه في منتصف الطريق، توفر الكتابة طريقة أكثر رصانة لهذا التخلص، تلقي بكل ما لا تحتمله على العالم. ومع هذا تبدو كأنك تتفضَّل عليه، كأنك تقدم إليه هدية، أو تشارك بما لا تحتمله في صنع عالم أفضل، وهو ما قد يكون غير خاطئ تمامًا أيضًا، لأنه، من زاوية أخرى، يمكن النظر إلى العالم كمتحف لكل ما لم يقوَ الناس على احتماله في داخلهم، فألقوه خارجهم، ليشكلوا هذا العالم، العالم الذي ما تخلصنا منه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يتجه الشعر الحديث للقصيدة الزيتية، أنت لا تقول ما تريده، لكنك تعدد ما تراه أمامك كأنك ترسمه بالألوان الزيتية، تقول مثلًا: «عربة الكارو المتوقفة بسبب حمار آلمته أزماته الوجودية، فوقها بقليل امرأة مبتسمة في النافذة، تفكر في حبيبها على المقهى المقابل، الحبيب على المقهى يلعب الطاولة، وصديقه يرمي بالنرد فرحًا وصاخبًا، وبجواره نادل المقهى يحمل صينية المشاريب وينتظر نتيجة رمية النرد، الكراسي الأخرى خالية تمامًا. ومن بعيد يمكننا رؤية معلم المقهى وهو يسند وجهه إلى يده مكتئبًا، يشارك الحمار في التفكير في الأسئلة الوجودية الكبرى». وهكذا ليس عليك أن تقول شيئًا، بل تأخذ قطاعًا أفقيًّا من الحياة، وتقدمه للقارئ، تعرف بالتأكيد عن الشاعر الذي دعا الناس ليروا أعظم قصيدة في التاريخ، فلما حضروا جميعًا، أخذ يقطع من جسمه ويوزع عليهم قائلًا: «أنا أعطيكم الآن، وحرفيًّا، قطعًا من ألمي الحي». هذا بالتحديد ما نتجاوزه في القصيدة الزيتية، لا تعطي أي أحد أي شيء، بل تصف تأملًا، مثلًا تأملك في غرفتك: «الحرباء التي تغير ألوانها على الحائط لم تعد تعرف مما تهرب. أغير ألواني وأنا جالس على السرير، كي لا تراني، ربما عادت لطبيعتها لحظة واحدة، لأكون وفرت لكائن ما طمأنينة وقتية». لا تعبِّر عن وحدتك بوضوح ولا تنظر في عينيها، تأتي في ذكرها عرضًا، كهامش، كمعلومة زائدة كان يمكن تجاهلها، تقول: «أجلس على المقهى، أنتظر العالم». هكذا افتراض الوحدة من دون أي داعٍ لإحضارها لصدارة المشهد، كان يمكنني أن أقول: «أجلس على السرير، أنتظر العالم»، قد يُفترض لذلك إيحاءات جنسية متعددة التأويلات، بينما الانتظار على المقهى يعطي ندية، فأنا أنتظر العالم كصديق أو كغريم ضمني، كخصم في لعبة شطرنج مقبلة، كبديل عن صديقتي التي كانت تفرد علاقتنا على الطاولة وتحولها إلى لعبة شطرنج. على كل منا ألا يخبر الآخر بمغزى تحركاته، أنتظر العالم، في حين أبتسم حين أرى فتاة أحببتها ذات زمان، لا تخطئ الظن، قلبي فارغ منها. ويمكن اعتبار

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الابتسامة بمثابة تحية لذاتي القديمة على حسن اختيارها، أنتظر العالم، في حين يتوقف حمار أمام البيت المقابل، وتفتح امرأة النافذة على وسعها، وتستند بكلتا يديها إلى النافذة بينما تشرئب برأسها مبتسمة ومحدقة إلى عينَي. أهرب من عينيها لأجد أمامي العالم وقد حضر ويرمي بالنرد، في حين يقف النادل بجواري يصب الشاي مندمجًا في اللعبة ليملأ الكوب زيادة عن حاجته، فيتساقط الشاي على الصينية، ويمكنك بالتأكيد أن تستنتج أن معلم المقهى يجلس بالداخل مكتئبًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كنت أسكن في لوحة تصور رجلًا يهرب من سجن عبر سلم يعود به إلى زنزانة أخرى في السجن نفسه، ليكون عليه الهرب مجدَّدًا، الرجل يمسك بالباب بحرص استعدادًا لغلقه ويحمل حقيبة على ظهره وحقيبة في يده. يقف على أطراف أصابعه العارية، وفي فمه حذاؤه، ينظر إلى الأمام مترقبًا ومبتهجًا، في اللوحة بيوت محيطة بالسجن من جميع الجهات، تخرج من نوافذ هذه البيوت رؤوس جيران السجن وهم ينظرون إلى الرجل باهتمام. كنت أنا أحد هؤلاء الجيران، كان على جيراني أن يظهروا حماستهم العارمة، بينما كان عليَّ أن أمثل الحسرة العالمة بمصائر الأمور، إذ إن بيتي كان على المنعطف المخادع الذي يعود به إلى السجن، وكان عليَّ إذن أن أشارك الجمهور الذي ينظر إلى اللوحة، الانطباع نفسه، أن أكون في آنٍ واحد في اللوحة وخارجها، وأسعدني ذلك لأنه ضاعف من قوة وجودي في الصورة وأقصاني عن نظرات الشفقة المتعالمة للجمهور الذي يرى المصير، غير أن تلك السعادة لم تقضِ على الرعب الذي يسكنني كلما فكرت في أن أدير وجهي عن الرجل والجيران والجمهور، وأنظر إلى داخل البيت الذي أطل من نافذته.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ينتهي فصل من حياتنا حين تفقد إحدى حكاياتنا المفضلة قدرتها على جذب الاهتمام، يبدأ آخر حين نمتلك واحدة جديدة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كلما أحببت أن أنظر متأملًا، أقلد نظرة رجل سعيد لم أعد أراه

كلما رددت أغنية بحماسة، أقلد ولدًا كنت أحب غناءه وإن ضاع صوته مني

وحين أجلس ولا يدور ببالي أي شيء، أبلل شفتَي بلساني كما رأيت بنتًا أحببتها تفعل منذ سنين طويلة

في اللحظات الأولى للرقص، قبل أن يهزمني خجلي وأتوارى بسرعة، أحرك يدَيَّ كما رأيت صديقة قديمة تحكي، ذات مرة، جالسة، ساخرة عن رقصها

حتى عندما أكتب، يتطفل على أسلوبي عشرات الكتاب والشعراء والروائيين ومدرسي اللغة العربية

وصحيح بالطبع، أن ذلك يشكل ضربة قاصمة لأي أفكار عن الأصالة الفردية الخالصة

فإنه أيضًا، يمكن النظر إليه، كدليل على أن المرء هو حشد من أجمل ما رأى

وعلى الأقل، لا يمكن لحشد أن يشعر بالوحدة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من المعروف على نحو واسع أنك لا تستطيع أن تتمتع بما لا يمكنك حكايته، بما لا يمكن وضعه في سياق قصة ما، بصفتها جسرًا بين عالم الأمل بها وعالم أصبحت فيها ماضيًا لامعًا، تكون المتعة ممتعة فقط حين يمكن حكايتها، هي قرينة الإحساس بالتحقق، والإحساس بالتحقق . بدوره . يحتاج إلى أمرين على الأقل، الانطلاق من قصة ما، ثم الحصول على الاعتراف باكتمالها. في مسلسل «الشركة»، كان مدير الشركة يحاول التقرب من امرأة وتقبيلها علانية، تحول هذا الأمر إلى شأن عام، لكنه يفشل في ذلك، قبل أن يستطيع أخيرًا ومنفردًا بها تمامًا، أن يقبلها، يعود ليحكي لهم ذلك، فلا يصدقه أحد، فيتجلى الإحساس بالخيبة لديه كأنه قد فشل بالفعل في تقبيلها. المتعة، مثل أي شيء آخر، وعلى الرغم من لحظيتها شديدة الرهافة، هي مشروع للحكاية في المستقبل. وعلى عكس النظر إلى الحياة كمحاولات لتحقيق طموحات طفل، فإن الإنسان يتعرف إلى أهدافه منذ نعومة أظافره، بذهنية رجل عجوز يسكن داخله على الدوام، ويحاول التفاخر أمام مستمعيه بما أنجزه طوال حياته، عجوز شره يسيطر على نحو كلي على مستقبل شخص آخر، ليحوله إلى ماضٍ مثير له. وليس ذلك منبعًا للرثاء فقط لكون التحقق النهائي للمتعة سيكون في اللحظة التي تختفي فيها أي قدرة على التمتع باللحظية الفائقة، ولكن أيضًا لأنه في لحظة تحقق القدرة على حكاية سيرة جميلة وذاخرة بالتفاصيل ولحظات المتعة الصافية، غالبًا ما لا يهتم أحد بذلك.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يمكن التأريخ لرحلة الإنسان، كمحاولة طويلة وجادة وشغوف ومرهقة للقفز خارج الذات، وعلى الرغم من أن التشبيه لن يمكنه في الغالب أن يوضح أكثر، فإنه يمكن تخيل الإنسان كسجين في قفص مربك تمامًا، مربك لأنه هو نفسه، يقفز الإنسان بالشعر والموسيقى والرسم والأغاني والحروب، بسرابات المجد وأشباح العار وأحلام اليوتوبيا. في هذا التأريخ يبدو الحب كأكثر هذه المحاولات جدية، لأنه يرجو القفز خطوة واحدة فقط، ومرة واحدة للأبد، ولو تمسَّكنا بالتشبيه الأول، لأمكن اعتبار الحب، كمحاولة لملامسة الأصابع من بين أسلاك ذلك القفص الشفاف تمامًا، تلامسًا خفيفًا ومؤقتًا وجزئيًا وجميلًا ومخادعًا ومربكًا وواعدًا بما هو فوق قدراته، لكنه أقصى ما هنالك.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مثل الجميع، أمتلك لحظات آمنة في حياتي، يمكنني أن أغمض عينَيَّ وأتسلل إليها، جلسة في مقهى، قبلة في مصعد، رحلة في النيل، أو يوم دراسي، بعيد، وشديد العادية، يصعب أن يختاره زميل آخر ليتسلل إليه، وكلما تمكنت من خلق لحظة جديدة والقبض عليها، يمتلئ قلبي بالطمأنينة لذلك. هذه أشياء لا يمكن أن يستردها مني أحد، لقد استحققتها إلى الأبد، غافلت صخب العالم، ولم يعد بوسعه استعادة ما اقتنصته منه، وإن حاول، سأختبئ في لحظة آمنة حصنتها جيدًا، مقهى كان يهرب إليه بطل رواية لم أعد أذكرها، وإن كنت أذكر الوصف الدقيق لطريقه إليها، انحناءات الشوارع، وشكل المحلات المجاورة، اسم المقهى، وأشكال الجالسين، المرأة ذات الحسنة في اليمين، الرجل العجوز على الطاولة البعيدة، وثلاثة شبان وفتاتين يتضاحكون بطمأنينة البدايات، وكنت أضفت إلى المقهى فتاة مرتبكة هربت من أهلها في رواية أخرى لكاتب آخر، ونادلة مقهى جميلة من فيلم ستيني محتفظة بلونها الأبيض والأسود. وفي المقهى بابان، باب ينفتح على حفلة سبعينية صاخبة، وباب ينفتح على ملحمة حربية قديمة، بينما باب المقهى نفسه ينفتح على لحظتين مختلفتين، يجب التفكير في كلتيهما معًا للدخول، إحداهما لصمت قرية غادرها كل سكانها هربًا من الطاعون، والأخرى على صباح مشمس في صحراء يستعد أهلها لاستكمال الرحيل، وأنا أجلس في مواجهة بطل الرواية، قاطعًا عليه سرده، وأنظر إلى بطلة الرواية الأخرى لأطمئنها أن كل الأمور ستسير على ما يرام، وأن أحدًا لا يمكنه العثور علينا هنا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كل تلك الليالي التي ناجيت فيها، بحماسة صادقة، الأشخاص الخطأ

كل تلك الأغاني التي ملكتني، وظننت أني سأرددها للأبد، ثم نسيتها تمامًا

الأصوات التي ظننت، من فرط حميميتها، أنها سترافقني حتى النهاية، ولم أسمعها ثانيةً

كل تلك المفاتيح التي أحملها، لأبواب لن أراها مرة أخرى

الانطباعات الخاطئة عن صداقات ملحمية محتملة، انتهت إمكانيتها قبل انتهاء اللقاء الأول

وآثار ذلك الألم العظيم على روحي، من حب لم أعد أحمله في قلبي

كل ذلك الجمال المخادع، الذي قطعت طريقًا طويلًا للابتعاد عنه

ولم يسلبني، على الرغم من كل شيء، الفرح بكل جميل مؤقت، والاستعداد التام، للمقامرة بكل شيء، من أجل إمكانية جميلة بعيدة

دون أي خوف من حنين ممكن أصبحت بارعًا في القضاء عليه أولًا بأول

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يُصاب الناس بالحزن، لكنهم لا يصابون بالاكتئاب، الاكتئاب لا يصيبك، بل يحاصرك، غابة كثيفة من الأشجار العالية والكثيفة والملتوية حول بعضها، بحيث لا يمكن الخروج منها، أنت تسير في العالم وأنت حزين، لا يمكنك أن تفعل ذلك في الاكتئاب، حيث تسير في غابتك داخل العالم. ولترى العالم نفسه يجب أن تشق طريقك داخل الغابة أولًا، وأن تصنع علامات في طريقك، لتتمكن من الخروج إن حُوصرت داخلها مرة أخرى، أن تتدرب على فك التواءات الأشجار داخل بعضها، أن تقطع بعض الغصون أحيانًا لتعبر، وأن تقطع أشجارًا كاملة إن تطلب الأمر، لتخلق الطريق. أولى الأشجار التي ستقطعها هي وهم الألم الجميل ذو القيمة العظيمة، كل الآلام قبيحة ويجب القطع معها، آخر الأشجار التي تقطعها هي وهم أنك حين ستخرج سترى العالم الجميل، خارج الغابة، العالم ليس جميلًا، لكنه العالم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مثلما تحيك امرأة عجوز، وحيدة، بدأب بالغ، معاطف في خيالها لتخدع البرودة، في زمن مضى حِكت آلاف الأحاديث الوهمية بيننا لأتدثر من الوحدة، ومثلها تمامًا، كنت أقف، كل صباح، أمام خزانتي المتخمة، لأنتقي ما سيرافقني طوال اليوم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هذا أمر بديهي، الحياة كما عرفتها هي مملكتك الخاصة، لم يعرف أحد غيرك العالم كما تراه، ولن يعرفه أحد، هذا ليس جميلًا بشكل خالص، كما تبدو الجملة، يبدو جميلًا فقط لأنه يتضمن امتلاكك لشيء ما، والتملك خاصية مثيرة، خصوصًا إذا لم تدفع شيئًا لتحظى به. هذا العالم ملكك من دون مجهود ومن دون طلب، حتى السؤال الأكثر جدية الذي سيدوخك، هو ماذا عليك أن تفعل به الآن، هدية كبرى ومفاجئة وساحرة، لكنها عشوائية وشائعة ومبذولة للجميع، حتى إنها ستبدو لك أحيانًا كإهانة صريحة، لولا أنك ترى من هو أجمل منك، وأطيب منك، قد تلقى الهدية نفسها، لهذا السبب تحديدًا، الجمال، في حد ذاته، وعلى الدوام، أمر مطمئن.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اللحظات الأخيرة في انتظار من لم يأتِ

النقاشات الأخيرة للحفاظ على علاقة ستنتهي

الطلقات الأخيرة قبل الانسحاب من المدن

واللقاءات الأخيرة لصداقة أفترها الزمن

التفكير في الانتظار دقيقة أخرى

وإعادة الحجة نفسها في النقاش للمرة العاشرة

ووضع خزنة جديدة للبندقية لعلها تفلح هذه المرة

والاتفاق على اللقاء في أقرب فرصة

التعهد بترتيب موعد جديد

والوعد باستمرار الصداقة رغم كل شيء

وأناشيد البعيدين عن العودة

والإيماءات المرتبكة في لقاءات الشوارع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أحفظ، عن ظهر قلب، جميع الشوارع المؤدية لبيت فتاة أحببتها في بلدة لم أعُد أعيش فيها

وأعرف كل اللزمات المصاحبة لصديق طفولة لم يعُد هنا

وأستطيع بسهولة بالغة إثارة ضحك مجموعات لن تتجمع مرة أخرى

وتحضرني على الدوام ملامح صديقة تحكي بحماسة عن مغامرة، تبالغ فيها أحيانًا، وإن لم يحضرني اسمها

وأذكر قصيدة جميلة لصديق، لا أظنه، بعد هجر الشعر، سيتمكن من تذكرها أبدًا

ويمكنني أن أرسم، بدقة مذهلة، تفاصيل بيوت حظيت فيها بطمأنينة، ولا أعرف أين ذهب أصحابها

وأظنني قد تمكنت من حفظ كل ما يخصني فعلًا، كل ما أحببته فعلًا، كل ما يمكن الاستعانة به، حين يكون بوسع كل فرد أن يخلق عالمًا يحبه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تبدو الوحدة كظلام تألفه بطول الإقامة، وينقبض قلبك، حين يهل عليه أحد بغتة، مثلما تُغمَض العين من النور المفاجئ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الضحكات التي أهدرناها في محاولات فاشلة للاندماج وسط مجموعات غريبة

الضجيج الذي نصنعه لإلهائنا عن ما لا يمكن الهرب منه، كمن يضع أصابعه في أذنيه اتقاءً لقذيفة تُلقى عليه

والحب الذي طالما افتخرنا به كتجربة جميلة وإن لم تكتمل، مثلما يفتخر متعارك بندوب معركة لم يحرك فيها حتى يديه

والكلام الجميل، الذي أفلت منا في لحظات خاطئة، ونحن نعلم عدم جدواه، كمن يفشي خطته لعدوه

وحماساتنا المبالغ فيها، لقضايا خاسرة، لا نستطيع التراجع عنها لاعتداد بأنفسنا يجبرنا على المضي كمهزومين أوفياء

وهشاشاتنا التي استعرضناها، أمام الناس، كلوحات فنية، برعونة من لا يملك شيئًا ليخسره، ودون أن يفطن أحد لما أردنا قوله

وكل أخطائنا الأصيلة، التي استعضنا بها عن هويات لم نستطِع التأقلم معها، وأحلام لم نقدر على بلوغها، فدافعنا عنها كما يدافع المرء عن أبنائه المشاغبين

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نتحادث في أمر ما، غير مهم لكلينا، لكن بحماسة التشويش على معركة أخرى، حيث تفلتين يدكِ من يدي، باحتراز تام، وبإصرار على جعل الأمر يبدو عرضيًّا وغير متعمَّد، بينما تحاول أصابعي محاوطة يدكِ مرة أخرى، قبل أن آمرها بالتراجع، وأطلق عدة نكات، مثلما تطلق الجيوش نيرانها في كل اتجاه للتغطية على انسحابها، فتضحكين جدًّا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على عكس أن تبذل جهدًا ضخمًا، ثم يتعب جسمك بعد ذلك بيوم كامل، لحظة أن يدرك فيما ورَّط نفسه فيه، قبل أن تعيد الجهد، فتنمو العضلات ويتعود الإنسان، تأتين أخيرًا لي، كفترة راحة، بعد مجهود شاق من الوحدة، تخلصت معكِ منها، ثم استيقظت بكل ذلك الألم مرة أخرى، على عضلات الوحدة أن تنمو ثانيةً، وعلى القلب أن يستعيد خشونته، وعلى يدي ألا تجول في الظلام بحثًا عن يدكِ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حين يغلب السكر الناس، ويجاهدون أعينهم للبقاء متيقظين، عليك أن تفتح عينك جيدًا

ولتنظر بوقاحة إلى الحفلة وهي تنتهي، المنهكين، والمترنحين، والمتقيئين، البكائين، والضاحكين خارج السياق

انظر جيدًا، كيف تنسحب الروح بسلاسة من كل شيء، كعشيق يهرب قبل وصول الزوج

وكيف يتباطأ الرقص تدريجيًّا، وتنتصر الحركة البطيئة

كانت حفلة جميلة صاخبة، ولكن هذا ما سيبقى دائمًا

الكؤوس فارغة أو مكسورة، ولا يمكنك تمييز بقايا الطعام من القيء

وإيقاعات الطبول تختفي، لتظهر مرة ثانية في رأسك في هيئة صداع لا يحتمل

هكذا يعود العالم، الممل والبغيض، صاخبًا مثل الحفلة نفسها، وأرعن، وغيورًا، وغبيًّا، ومستعدًّا للمعارك، كالزوج السكران

هناك، في منتصف القاعة، لا يزال من يرقص بكل المهارة التي يمتلكها، ويدعو الناس للعودة، لكنك تعرف الآن أن من يستمتع بالحفلة فعلًا، هم أول من ينسحبون منها، قبل ذروتها غالبًا، جماعات، فرحين، وفي أعماقهم يدركون أي عالم خلفوه وراءهم، العالم الذي كان هناك دائمًا، منتظرًا لحظة الانقضاض، العالم، الذي تدرك، ببطء، أن الحفلة كانت تندفع إليه بكل قوتها

العالم الذي تجلس بوقاحة للنظر إليه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان بعض القبائل القديمة يعتقد أنك إذا حاصرت غزالًا من جميع الجهات، ثم هجمت عليه سيختفي، لأنه لم يحقق المشهد الجميل الذي يثيره الخوف فيه، حين يهرب فزعًا آملًا في نجاة غير محتملة. ورأى مفسِّرون مسلمون أنه لسبب قريب من ذلك حرَّم القرآن أكل الحيوانات المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وكل ما سقط بخسَّة ودون معركة حقيقية، بل يُحكى أن الملوك في أحد البلدان كانوا وهم يحصِّنون مدنهم يتركون بعض الثغرات عامدين، لظنهم أن إغلاق أي شيء على نحو تام هو نداء للموت الذي لن يتأخر أبدًا عمن يناديه. ويقول قادة الحروب إنك يجب أن تترك مهربًا لعدوك دائمًا لكيلا تجد نفسك محاصَرًا به. وأيقن عشاق الشعراء، جيلًا بعد جيل، أنك يجب أن تهرب من الحب ثم تعود إليه بعد أن تنتهي من حصاره لك، لتستطيع التمييز بينه وبين محاصرته الأولى، بل إن بعض العلماء يقول إن الكون لا يتمدد بالضبط، بل يهرب، وإنه سينتهي حتمًا حين يختبر حدود حصاره. ولهذا رأى الفلاسفة أن الناس يصيرون أغبياء بالوقت، لأن الأذكياء غالبًا ما يكملون حصارهم بأنفسهم، يسدون ثغراته، ويحركون قطع شطرنج العدو في عقولهم، فينسحبون، بينما تُتاح فرصة الهرب للأغبياء الذين لا يرون مآل لعبتهم الخاسرة، بل يحبونها، ثم يجاريهم القدر لتستمر اللعبة، يموت اللاعب الآخر أو ينشغل أو ينسى، أو يخسر متعمدًا ليجرب الأمر. ينجو الغزال الذي لا يرى الصورة كاملة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

روحي على الجسد الجميل الذابل، وعلى الأرواح الجسور التي أنهكها الزمن

قلبي مع الجمال الذي لم يكتشف نفسه، ومع الأغنيات التي فقدت ذروتها بسبب كلمة في غير موضعها

القُبلة التي عطَّلها تلصص الآخرين، والنبوة التي أتت بعد موت صاحبها

حزني على الضحكة الجميلة التي توتَّرت في منتصفها، والابتسامة التي قطعها الخوف

اللوحة التي لم يكن ليوجد أجمل منها لولا مغامرة في اختيار درجة لون واحد

القسوة في غير موضعها، وأيام الطمأنينة التي راحت دون أن يلاحظها أحد

الذكاء المتقد المنشغل بالتوافه، والحزن الذي أتى قبل موعده

الشعراء الغافلون عن شعريتهم، والأنبياء التائهون في شكل حكماء محليين

الكآبة التي لاحقت الناس في أزمنة جميلة، والأمل حين لم يتبقَّ ما يُرجَى قدومه

الشجعان الذين خسروا أرواحهم، بسبب حركة مباغتة، في معركة أولى

والذين قامروا بحيوات عظيمة، من أجل أفكار شديدة السخافة

رثائي لكل فاتن عطَّله التردد، ولكل فكرة ساحرة خانتها اللغة

لكل جميل مرتبك، ولكل عظيم عديم الثقة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تمنحك قصة الحب المثالية كل شيء، إلا الحكمة، تُمنح الحكمة للخاسرين، للبحث عن أسباب خسارتهم، لقضاء العمر في تبرير الهزيمة، لم يرَ أحد حكيمًا منتصرًا، فالحكمة انتصار لا يحدث إلا في اللغة، فاكهة الذهن الشهية، جمالياتها جماليات الفقر، الحياة الضائقة لكن الأصيلة، والتعب المضني المكلل براحة حقيقية في نهاية اليوم، الجماليات التي لا يختارها أحد، ولا يدخر أحد جهدًا للهروب منها، لكن الجميع سيتفق أنها بالتأكيد حياة أغنى من حياة الثراء البليدة، التي يتمنونها جميعًا. ولسبب ما، يعتبر الناس الحب الخائب هو الحب، والمحبين الخائبين حكماء يجب تصديقهم، لخيبتهم نفسها، الحب الناجح كالثراء السريع، أمر لا تبرير له، أشبه بالجريمة، وتحوم حوله شبهات الغش والرشوة والوساطة، أمر كان يجب له ألا يحدث ليحتفظ بمصداقيته، ولهذا تلتمس الحكمة عند الخائبين، لتمرير عمق خيبتهم إلى خائبين جدد، حتى إذا تمكن أحدهم من مغافلة الجميع، لاحقته النظرات الغاضبة، كما تلاحق الخونة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثم أعود كل ليلة إلى البيت الذي أعلم، يقينًا، أنكِ لا تنتظرينني فيه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أقصد، أنني لا يمكن أن أشرح أثر رؤية صورة جميلة لكِ فيَّ، أو أثر أن يخبرني صديق مشترك بحزنكِ، ليس لعجزي عن التعبير، أو لتشوش عاطفتي، بل لأنكِ لن تعطيه الفرصة، ستندهشين من برودة أثره فيكِ كذروة رواية رديئة لا تدرين كيف تمكنتِ من مواصلة قراءتها، كنهاية فيلم نمتِ في منتصفه، أو حتى ستحبين فكرة أن هناك كلامًا جميلًا وجَّهه إليكِ رجل ما. ما أود أن أقوله يعتمد بالأساس على كيفية استقبالك له، على أن تكوني متهيئة له تمامًا، هو تقريبًا لا يخرج للوجود إلا بعد ترحيبك به، كأنكِ تتذكرينه، ما أريد أن أشرحه لكِ لا يمكنكِ سماعه إلا إذا كنتِ تعلمينه من البداية، علمًا ليس كالعلم بحقيقة طبيعية، لا يمكنكِ رفضه، ليس لأنني أتفلسف لأخلق طريقًا في خيالي لا ينتهي بي أبدًا إلى حيث يمكنني تصور إمكانية أن ترفضني فتاة أحبها، بل برفضك أيًّا مما أقوله لكِ، فأنا فعلًا لم أكن أقصده بأي حال، وربما لم أقُله أصلًا، ما أود أن أقوله شيخ عجوز عائد إلى قرية غادرها منذ زمن طويل، ليس هناك من قيمة لكل حكاياته، ما لم يتذكر أحدهم وجه طفولته، وهو لا يبدأ الحكي إلا بعد أن يعرف أن حكاياته قد اكتسبت معناها فعلًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يوم واحد فقط، ليس لخلق اليوتوبيا، بل لإنهاء كل هذا الزحام

يوم واحد، ليسرق المراهقون قُبلتهم الأولى، لتدخين سيجارة أولى، وللسكر لأول مرة

يوم واحد، لمصادفات الحب الثاني، الأجمل دومًا من أول حب، وللحظات الأخيرة للحب الأول

يوم واحد، للتخلص من قمامة الروح، الكراهية التي نُسيت أسبابها، والحماسة تجاه ما لم يعد واعدًا، والشوق لماضٍ لم يكن جميلًا لواجب تاريخي

يوم واحد، لغناء كل القصائد غير الملحنة، ولإكمال كل الروايات التي تركنا أبطالها في مسرحهم ينتظرون قراءة أخرى

يوم واحد، لينظر المناضلون في عين قضيتهم إن كانت تستحق أم لا، وليقرر الأعداء ما يريدون تدميره تحديدًا

يوم واحد، لحضور كل اللقاءات المرتبكة، ولتبادل السلامات بين الأصدقاء القدامى، ولتبادل الشتائم بين المحبين الخائبين

يوم واحد لأقول صراحةً إنني أحبكِ، متخلصًا من دروع المجاز، ولتقولي، صراحةً، إنكِ لا تهتمين

يوم واحد، للتجارب المؤجلة، للمغامرات التي ينهك الناس التفكير فيها، دون أي إقدام

للنزوات الطائشة، للاعترافات الصادمة، ولخيانات المرة الوحيدة

يوم واحد فقط، لا ليكون العالم أكثر جمالًا، بل ليكون أخف حملًا وأوضح بصيرة، هذا كل ما أطلبه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ظهر الحنين للعالم للمرة الأولى، عندما نحت أحدهم وجه من يفتقده في الصخور.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مكتوب على أقدم جدارية في العالم، والمحفوظة داخل أحد متاحف الصين: «ها أنت أفلت الحبل، وعليك أن تنتظر الارتطام». حسنًا، هذا ليس صحيحًا، لكني أعتقد أن شعار «الأدب من أجل الأدب»، لا يمكنه أن ينطبق على شيء قدر انطباقه على الانتحال. انتحال شخصية حقيقية والصراخ من داخل قناعها. لا يمكن لحكيم أو شاعر أن يكون أكثر إخلاصًا لأدبه، من أن يضحي بنفسه تمامًا، ليعيش فنه، في جسد غريب تمامًا.

من هذه الزاوية، يمكن النظر إلى مجلدات الأحاديث الموضوعة على النبي، كأكبر مقبرة جماعية للأدباء المجهولين، شهداء الكلمة، الذين تعشموا في اسم النبي، أن يحفظ لهم حكمتهم التي لم تكن لتُقدَّر مطلقًا لو خلعوا أقنعتهم. في بحر مليء بالغرقى والسفن المتحطمة وصرخات الاستغاثة، ألقى هؤلاء قصصهم القصيرة وملاحمهم المتخيلة، إلى الأسطول الوحيد الذي توقَّعوا أنه سينجو. داخل السفينة، حراس يعيدون إلقاء كل غريب عنها إلى البحر مرة أخرى، حتى لا تغرق من ثقل حمولتها، لكنها مهمة مستحيلة تمامًا، من جهة لقد صعدوا متأخرين جدًّا إلى سفينة شديدة الاكتظاظ، وكل ما سيُرمى، سيقفز ثانيةً إلى سفينة أخرى، أو يختبئ بشكل جيد، حتى تصل السفينة، التي تتوقَّف في كل ميناء، ليخرج منها ولا يعود، وبين أهل الميناء، سيكون إلى الأبد، الأدب الذي خرج من السفينة. وبينما قد يشعر المتدينون جدًّا بالغضب تجاه كل حديث موضوع منتشر، يمكن للمرء أن يشاهد الأحاديث الموضوعة شديدة الانتشار، والمشهورة عند الناس بكونها الأكثر انتماءً للسفينة، كما يشاهد الناجين من حادثة غرق كبرى، وهم يهبطون بسلام في الميناء إلى أحضان أهاليهم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ماذا ستمنحنا الحياة الطويلة، ما دامت أقصر من الدهشة

ماذا ستمنحنا المودة الغامرة، ما دامت أقل من الحميمية

وبماذا ستفيدنا القلوب الفتية، إن كانت قد انتهت المعركة

وكيف سينقذنا الحب، إن كان يسقط، كطفل غر، عند كل هاوية؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نحن في حفلة ضخمة، في قصر شديد الاتساع، يجلس الناس داخله على غصون أشجار عملاقة، أراكِ من الخلف، فأحاول التسلل إلى المجموعة التي تتحدثين إليها كأنها مصادفة، متنقلًا بين الشجر، لكنكِ كنتِ تستديرين لمجموعة أخرى كل مرة، كأنكِ تهربين، على الرغم من أنكِ لم تكوني كذلك، كنتِ تسألين كل أحد عن شيء فقدتِه. مرت ساعات طويلة في هذه المطاردة، من دون أن أنجح مطلقًا في التقاط وجهكِ ولو لمرة واحدة، أخيرًا، أدخل إلى غرفة صديق، هي أشبه بكهف داخل شجرة، لأراكِ، من الخلف، جالسة على مقعد وتضمين قدميكِ إلى صدركِ، وتستعدين للبكاء، تتساقط قدماي كأوراق خريف، في اللحظة التي تبدأ فيها أغنية جديدة صاخبة في الخارج، فلا يلاحظ أحد، تبدئين في البكاء. يدخل صديق الغرفة غاضبًا، ليقول إنه لا يوجد أسوأ من أن يحضر أحد هذه الحفلة، أجيبه أن الأسوأ أن تكون متسللًا إليها، تتقرب مني فتاة جميلة، نبدأ الرقص، ثم أقبِّلها، وأمر على جسدها بيدي، يبدأ تحوُّل الأمر ليصبح مريبًا، فتقطع صديقة أحلامي أغنيتها التي لا تعزف غيرها، لتخبرني أن ما ينقذ المرء نفاذ الإرادة لا وضوح البصيرة وأن السقوط ليس حلًّا لفقدان الاتزان. أعنفها متسائلًا ماذا تقصد بذلك، ثم أعتذر عن عنفي، لتقول إنني تجنبت على الدوام خيار النداء مفضلًا عليه الصدفة المصطنعة، وأجيبها أن كل نداء استغاثة، وأن مجرد الالتفات إليه تورط في واجب لا يصح إجبار أي أحد عليه. تستمرين في البكاء، فتكبر شجرات صغيرة، سرعان ما تبدئين الانتقال بينها، بينما تجلس صديقتي للعزف مرة أخرى: «ألم أقل لك يا حبيبي، كل حبي لك زائل»، ويدفعني صديق للرقص، لأخبره أنني مضطر للجلوس بعض الوقت، حتى تنبت قدماي ثانيةً، وأنني تحديدًا أبكي لتكبرا بسرعة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تمكنت بسهولة من فك شفرات الاستغاثة لكثير من الناس، ولم أقدر على مساعدتهم.

الوحيدين والمكتئبين والأذكياء المخذولين، ومن لا أدين لهم بأي شيء، سوى أخويتنا الوجودية.

صارحني كثيرون بوحدتهم، ففعلت مثل كل الناس وتظاهرت بالانشغال.

صحيح ليس بوسع الفرد إنقاذ العالم، ولكن يجب على المرء أن يشعر بالعار وهو يضحك في اللحظة التي يكون قادرًا فيها على سماع صرخات الآخرين.

أحبني البعض بتهور، وبشكل تجريدي، ولم أقدر على أن أرد لهم هديتهم تلك، بل وأبديت تأففي أحيانًا.

وكرهني البعض بتهور، ليمنحوني تسلية أوقاتي، وكرهتهم بالمقابل كرد للجميل.

وأحببت كثيرين بتهور أيضًا، ولم يرد لي أحد هديتي.

ومثل الكثيرين مرت عليَّ أوقات دسست رسائل استغاثاتي في كل شيء، الكلام والنكت والإيماءات، الضجر، الغضب غير المبرر، والقسوة، وأفهم الآن أن من كان قادرًا على فكها كان عاجزًا عن التدخل.

قبَّلت أجمل فتاة في العالم، وصادقت ألطف فتاة في العالم، وأحببت صديقة سنوات طويلة حتى نسيت في آخرها لمَ كان كل ذلك.

احتجت أحيانًا إلى أن أرى أحدًا أحبه، لأتذكر لم لا يجب أن نستسلم للأوقات الصعبة، ولم يجئ أحد ولم تكن نهاية الدنيا.

وعشت لحظات حميمية كثيرة، أفسدها ضجري من كل زائل.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بكيت سكران في ركن بيت في حفلة صاخبة، وهتفت بأعلى صوت ممكن في بداية ثورة.

شتمت أناسًا في وجوههم لمناوراتهم في النقاشات الفكرية، وراقبت نفسي كيف أناور متعمدًا للدفاع عن فكرة لست متيقنًا منها تمامًا، وخضت بمرور الوقت النقاشات نفسها من موقعين متناقضين.

انفجرت في البكاء المفاجئ مرات عديدة، وضحكت منفجرًا بشكل مفاجئ مرات أكثر.

سخرت من بعض الناس وأنا أعلم أنهم لن يقدروا على رد السخرية، وسخر مني أناس لم أكن قادرًا على الرد عليهم.

التزمت بصداقات كنت راغبًا في الهرب منها لإحساس بالمسؤولية، وزايدت عاطفيًّا على آخرين لرؤيتهم وأنا أعلم ثقل ذلك عليهم، لحاجتي إلى ذلك.

تسلقت أسوارًا للهرب من المدرسة وللاختباء في ألعاب الأطفال وللتلصص على جميلات ولرؤية عفاريت في بيوت مهجورة وللفرار من اعتقالات عشوائية، على الرغم من أن الأبواب كانت مفتوحة غالبًا.

سرت في مظاهرات تدعو بحماسة لعودة الدين، وسرت في مظاهرات ترتعب من عودته.

حلقت مع خيالات المجد الفردي، حتى أحسست بملكية العالم، وحطمتني أفكار الإهمال والهشاشة، حتى لم أعد أمتلك روحي.

انتشيت بقراءات أمدتني بثقة عارمة بعقلي، وكدت أبكي من استغلاق قراءات أخرى عليّ.

رأيت الارتباك الفرح لرؤيتي من أناس، ومكنني طبعي المتحفظ من إخفاء ارتباكاتي تلك أمام آخرين.

سهرت طوال الليل في انتظار رد على رسالة حب، وفي انتظار

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مداهمة الأمن لمنزلي، وفي انتظار صباح جمعة الغضب، وفي انتظار مذبحة، وفي محاولات لمذاكرة المناهج للمرة الأولى والأخيرة قبل الامتحانات.

راقبت من هم أذكى مني كثيرًا يتحولون إلى أشخاص شديدي العادية، ورأيت أغبياء يمضون في ثبات لما لم يكونوا يحلمون به.

لعنت خوفي لمنعي من تلبية طموحات خيالي الملحمية، ثم شكرته عندما فطنت متأخرًا لعواقب ما كنت أنتويه.

كذبت كثيرًا مجاملةً أو خوفًا أو رغبةً في التقرب، واعتبرت ذلك لطفًا ودبلوماسية، وكذبت أكثر لكيلا أجرح أحدًا لن تفيده الحقيقة في أي شيء.

استيقظت كثيرًا مرعوبًا من أحلام مخيفة، واستيقظت كثيرًا ممتنًا لأحلام جاءت في وقتها المناسب.

كنت هادئًا في أفضل أيامي، لأمتص داخلي لحظات الطمأنينة حتى نهايتها، وكنت هادئًا في أسوئها، لأنه لم تكن لديَّ حيلة.

لم تكن حياتي غنية جدًّا ومليئة بالأحداث، ولا فقيرة جدًّا بحيث تخنق أي إمكانية للحكاية عنها.

وبدا لي في بعض الأوقات أنني لم أحظَ قَطُّ بما هو لي، وأحيانًا أخرى كنت أتعجب كيف تجيئني الأشياء من دون حتى أن أطلبها.

جلست مع أصدقائي من الشروق للغروب للصيد وعدنا من دون أي سمكة، ولم ننتبه حتى لذلك، وتسلقت أشجارًا مجتمعة قد تشكل ناطحة سحاب، وغنيت قصائد جميلة اكتشفت بعد أزمنة طويلة أنني كنت قد غيرت كل شيء فيها.

سرحت في أحلام اليقظة في الميكروباصات، وفي الجلسات المملة، ووحيدًا في غرفتي، وفي ندوات عقيمة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أرَّخت لحياتي مئات المرات، وكل مرة كانت حكايتي مختلفة جدًّا بحيث ظننت أن الفشارين هم أول من استوعب حقيقة الحياة كمجرد حكاية، وما دامت كذلك فلمَ يبخل المرء على نفسه بقصص عظيمة؟ فأمددت حكاياتي بتفاصيل غير حقيقية لكنها أكثر إثارة.

تماهيت مع أبطال كُثر لم أكن أشبههم في شيء، وادعيت لنفسي صفات لم أكن أملكها.

تحمست لمعارك لا تخصني من دون داعٍ، وحزنت لأسباب تافهة، وتعلقت بأشخاص لا أستطيع الآن مجرد الجلوس معهم، وارتكبت حماقات لم أكن أتخيل أن تأتي من شخص مثلي.

ألطف الذين صادقتهم كانوا يظهرون كأشخاص عدوانيين.

كل الأفكار الذكية جدًّا التي سمعتها، قيلت بتردد وارتباك.

كل البنات الجميلات جدًّا اللاتي عرفتهن، كن يتحاشين النظر في المرآة لكيلا يرين ما ظننه قبحًا لا يمكن مداراته.

كل الشجعان الذين رأيتهم، كانوا يخطئون في اختيار معاركهم، ويخسرون.

وكل من عرفت يقينًا أنه ينبغي الاحتفاء بهم، كانوا وحيدين تمامًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على الأقل، شخصان ممن التقت أعيننا مصادفة في الشارع اليوم، كانوا حزينين فعلًا.

الولد في الميكروباص ذو القميص الأزرق، والبنت التي تنتظر أن يقف سائق تاكسي لها في ميدان الجيزة، وربما ينضم إليهما عامل بنزينة في شارع قصر العيني.

على الأقل، أربعة كانوا سعداء، ولدان أمام فاترينة لمحل أحذية، وبنت وقفت على مقدمة شارع فرعي تحمل كيسًا عملاقًا لعلها تحمل بداخله كل الإجابات الوجودية، وامرأة أربعينية وقفت في شرفتها بملابس خفيفة في الشارع الشعبي تنظر ساهمة إلى العابرين، الذين سيتلصص واحد من كل خمسة منهم، على وقفتها، لعل نظرتهم تجد ثغرة لمعرفة طبيعة مفاتن جسمها، وهو، عن تجربة، لم يكن أمرًا سهلًا، كما قد يظن المرء في النظرة الأولى.

على الأقل، ثلاثة، ساعدوني بغير انتباه، أمين الشرطة، الذي عبر الطريق المليء بالسيارات المسرعة، وعبرت بجواره، متخذًا منه ساترًا بشريًّا، وعامل محل الملابس الذي حدس مقاس ملابسي الداخلية، الحدس الذي اكتشفت صحته عندما عدت إلى البيت، وبائع السجائر الذي رضي أن يحول المائة جنيه التي أحملها إلى خمسينتين، أعطيتهما لعامل الديلفري الذي أنزلني من حصني لأبحث له عن فكة، وجلس بلامبالاة كاملة، تليق بعضو طبقة عاملة يحتقر كل برجوازي، على دراجته النارية، ينظر، فرحًا من أعماقه، إلى محاولاتي اليائسة للحصول على فكة.

على الأقل، واحدة كانت تحمل بداخلها شيئًا تريد التخلص منه، لدرجة أنها حاولت أن تبدأ حديثًا فلسفيًّا بخصوص كتاب أحمله، وهو الأمر الذي لا يليق بميكروباص يخترق شارع الدقي، في ساعة الذروة، في رمضان.

على الأقل، اثنان كانا ذكيين فعلًا، سائق التاكسي الذي دل رجلًا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على الشارع الصحيح، في حين كان الرجل يسأل عن الشارع الخطأ، والرجل الخمسيني الذي أدار عملية لم الأجرة في الميكروباص بسرعة ومن دون أي أخطاء حسابية.

على الأقل، سمعت حوارين ممتعين، واحدًا بخصوص زوجة سائق التاكسي، لعل اسمها نهلة أو نهال، وأختها التي رفضت أن تذهب إليهم بأولادها الثلاثة للإفطار، وواحدًا بخصوص صديق رجل ثلاثيني يعاني من مشكلات جنسية، الحوار الأخير اشترك فيه أربعة في الميكروباص، وانتهى حين حاولت أخيرًا الاشتراك بنكتة لم يستلطفها أحد.

على الأقل، رأيت سبعة أشخاص غاضبين، خمسة كانوا يتعاركون معًا، بشكل حضاري جميل، من دون أن يلمس أحدهم الآخر، وإن هددوا بذلك، وانتهت المعركة حين مل الجميع، واثنين تعاركا حول فتاة اتهمت أحدهما بالتحرش بها، ثم وقفت تنظر بشجاعة إلى المعركة، وأظن أنها كانت تفكر في المشاركة، في اللحظة التي بدأت في المغادرة فيها.

على الأقل، ثلاثة كانوا متيقنين من أن نهاية العالم غدًا، اثنان لأسباب سياسية، وواحد لسبب وجودي جدًّا، ولكن ليس صدفة طبعًا أن هؤلاء كانوا جميعًا سيكونون أصدقائي.

على الأقل، سمعت نكتة مضحكة جدًّا، ورأيًا غبيًّا جدًّا، وحكمتين مبتذلتين تمامًا قيلتا بثقة تامة تليق بابتذالهما، وقلت أنا ثلاث حكم مبتذلة، ومجاملتين، ونكتة سخيفة، كما سبق أن أشرنا، ورأيًا واحدًا صريحًا، أظنني سأتراجع عنه في الغد.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تُستعاد الذكريات فعلًا مرة واحدة، بعد ذلك يصبح أثرها ملوَّثًا بذكرى استعادتها الأولى، وهكذا حتى تختفي اللحظة الأصلية خلف استعاداتها المتتالية، استعادتها للمرة الأولى هي في الوقت نفسه وداعها الأخير، يفسِّر هذا أننا نلتفت فجأة للوراء إثر كل مغادرة، لأن الأشياء تصبح فاتنة جدًّا وهي تختفي تمامًا.

69%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حتى في انهياره، على كل جميل أن يناضل ليخلف وراءه شعورًا بالحسـرة، لا بـالتعاطف المصـحوب بالشـفقة، أن يخلـق حنـينًا لاكتماله الذي لم يكن، كأسطورة عن فردوس مفقود تغوي الناس جيـلًا بعـد جيـل بـالبحث عنـه، وليس كأطلالٍ لمجد قديم تثير التفكير في الاتعاظ من نهايته، ومثلما يجب أن ينهي المرء أي لقاء حميمي، في ذروته، قبل اكتشاف الناس أنهم قد استنفدوا حكاياتهم، ولم يبقَ لهم إلا الوداع من دون لهفة لجلسة أخرى، على كل جميل أن يبدو دائمًا على وشك الاكتمال، من دون أن يكتمل فعلًا. على الوقت أن يظل يداهم شهرزاد إلى الأبد.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أخبرت أصدقائي مرات عديدة بحسم عن أشخاص كثيرين أنهم ألطف أشخاص في الدنيا، وحكيت عن كُتَّاب أكثر أنهم منفردين. كانوا أذكى كُتاب في التاريخ، عن فتيات أكثر أنهن أجمل فتيات في العالم. لم يكن يتعلق الأمر بحماسة لحظية زائلة، ولا بأحكام قيمية صلبة ومقارنة. فلان ليس ألطف ما في الدنيا مقارنةً بشخص ما أو قياسًا بمعايير عامة يمكن التفكير في وضعها، هو ألطف شخص في الدنيا لأنه ليس فقط يعطيك دومًا كل ما تنتظره منه، بل لأنه أيضًا يتدخل بعشوائية وبجسارة وحميمية في ما لا دخل له به، لينقذك مرة تلو الأخرى من الوحدة والحزن والضجر، هو ألطف شخص في الدنيا مقارنةً باحتمالاته الممكنة، هو ألطف أشخاصه. يصبح الأمر أكثر وضوحًا مع الكُتاب الذين أعجبت بهم، لطالما بدت لي الكتابة العظيمة هي الكتابة التي لا يمكن تعديلها، هي أجمل طريقة لقول ما تقوله، ليست بالضرورة الأكثر بلاغة أو سلاسة، لكنها الكتابة المغلقة. يكثر أن يستعمل نقاد الأدب تعبير «يبحث عن صوته الخاص» للحديث عن التجارب الأولى للأدباء الشباب، التعبير لم يفقد بصيرته على الرغم من استعماله إلى حد الابتذال، الكاتب الذي لم يعثر على صوته الخاص، ليس بالضرورة الكاتب الذي يمكن تبيُّن مراجعه الأدبية، لكنه الكاتب الذي لم يستطِع بعدُ التحكم في كورال هذه المراجع، الذي يترك أدباء مختلفين يقولون ما يريدونه عن طريقه من دون قدرة على ضبطهم، فضلًا عن تقويلهم ما يريد هو قوله. أذكى الكُتاب من لا نتحمس لتعديلات كتاباتهم، لأننا لا نتخيل أنهم عجزوا عن قول شيء ما، لا يعني ذلك أنهم قالوا كل شيء، ولا حتى أنهم قالوا أذكى شيء، بل إن كتاباتهم تعطي الانطباع الدائم أنهم قد قالوا كل ما أرادوا قوله، يحدث حتى أن يقولوا الأمر وعكسه، هم أيضًا عشوائيون ومغامرون ورُحَّل. الانغلاق هنا لا يعني تبني قالب صلب لا يمكن تكراره من دون إنتاج الأشياء نفسها مرة ثانية، ولكن التنقل بعشوائية يصعب تتبعها لإنتاج ما لا يمكن تكرار رحلته باتباع العلامات، بل والتحوُّل من صورة لأخرى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بحـيث تكـون كـل منـهما مغلقـة علـى نفسـها. الانغـلاق ولـيس الاكتمال، الاكتمال يعني القبول بالموت كخط نهاية داخلي، يموت المرء حين يؤدي مهمته مثلًا، هذا استسلام مجاني أمام حدث عابث، يفترض الاكتمال أنه لا إمكانية للإضافة، الانغلاق خلاق بعكس ذلك وقابل للتمدد خارج مساحاته الأصلية. «أفعل» هنا تعبـير عـن الرضا الممتن وليس التفوق، الرضا غير الراغب في التدخل، والرضا أمر غير مقارن، بل الرضا هو التضاد التام مع المقارنة. أجمل فتاة في العالم هي التي لا تحيلك مهما دقَّقت النظر إلى أخرى، للمقارنة، حتى لو كانت لصالحها، أعني بالانغلاق، تحديدًا، أن ينجح الشخص في ألا يعوق تنقل الدائم والجريء، أن يصبح، على الرغم من ذلك، مدى نفسه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أن تنتبه للحب وهو ينفلت منك، كأن تراقب إيمانك وهو يتلاشى، لحظـات شـجاعة وذكـاء وسـخرية اسـتثنائية جـدًّا، حتـى إنـك تستهلك وقتًا طويلًا لتعترف أمام نفسك أن ذلك يحدث فعلًا، أنك ترى العالم من دون هيبته، وتنتبه لكل التفاصيل التي أغفلتها، كل مـا يجعـل من تحب شبيهًا بالآخرين، تنتبه للنمط الذي أغفلته لصالح استثنائية كنت متيقنًا منها. الآن تدرك، هي تتكلم مثل زميلاتها في الجامعة، وتمشي مثل بنات طبقتها، بل وتضحك مثل بنات الأسر المحافظة المتمرِّدات، حتى طريقتها الساحرة في نطق جملة بعينها، تكتشف أنك سمعتها بالطريقة نفسها مرات عديدة، الإدراك نفسه يحز في نفسك، كأنك تسب صديقًا قديمًا في حضرة أعدائه، لكن هذه السخرية العميقة بمجرد حدوثها لا يمكنك التراجع عنها، تشعر بالقوة لأنك تحطم شيئًا عزيزًا عليك، وبالذنب لتحطيمك إياه. سيكون بوسعك أن تحب مرة أخرى، كما يمكنـك أن تـؤمن ثانيـةً، لكن هذه المرة، تكون أكثر خبرة، أكثر احتـرازًا وأقل تورطًا، ومستعدًّا للانسحاب عند الإشارة الأولى لتهدم العالم الجديد، ليس الحب الأول أكثر وطأة لأنه أكثر أصالة، فعادةً ما يكون نتيجة لقلة الخيارات، هو أكثر وطأة لأنه يخترقك مـن دون دفـاعات، ولأنـك تصـمد طويـلًا قبـل أن تكتشـف أن الانسحاب ليس عارًا يجب تجنبه، وأن الدهشة لا يمكن إعادة تخليقها بالقوة، وأن مقاومتك اليائسة تزيد من قسوة الانسحاب لكنها لا توقفه، وأن الحبل الذي لا تدعه يفلت منك يلتف حولك وحول من تحب، وكلما شددته أكثر شعرت بالاختناق، الاختناق الذي تفسره مخطئًا أنه نتيجة للانسحاب لا المقاومة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رنين تلفون في بيت أمرُّ بجواره، يشعرني بالوحشة، بأني مُقصَى من حياة ما، والعشرة سنتيمترات التي جاهدت فتاة في الميكروباص للمحافظة عليها بيننا اتقاءً لأي ملامسة جسدية أشعرتني بالغربة، نظرة سائق التاكسي إليَّ بشماتة ممزوجة بغضب فرح ليخبرني أنني قد اخترت الطريق الأكثر ازدحامًا، «كان زمانا وصلنا يا أستاذ دلوقتِ»، جعلتني أفكر في أنني ربما اخترته عن عمد، وبدافع من الفراغ والشعور بالمسؤولية، أرسلت إلى صديقة رسالة أسألها عن أخبارها، لم تصل لانقطاع الشبكة، وبدا لي هذا الانقطاع مصيرًا مثاليًّا تمامًا لهذا النوع من الاهتمام الضجر. راجعت في ذهني ذكريات عديدة لأحاول التفكير في تصرف أذكى كان يمكنني فعله، أو في تصرف أكثر جنونية ما دام الانهيار كان حتميًّا ولم يفِدني تحفظي في أي شيء، داخلني يقين بأن قدري كان سمكًا لتخلصي من علاقات حب تبدو لي بعيدة جدًّا عما أكونه الآن. واسترحت لتخففي من عبئها النفسي لو استمرت وتغيرت أنا، تزعزع هذا اليقين بعد ثانيتين حين فكرت أن ما أنا عليه هو، بالضبط، لأنها لم تكتمل، كتبت سطورًا قليلة قبل أن أكتشف كم هي مشابهة لأشياء كتبتها مسبقًا، وفي ذلك بعض العزاء والطمأنينة، وسلَّيت نفسي بفكرة أن الجري في المكان لا يزال هو الخيار الأنسب لمن لا يملكون مفتاح البيت.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أقرأ في حلمي عبارة جميلة جدًّا، أعرف أنني أحلم، وأحزن لأنني سأنساها، في الطريق للمترو، غالبت نفسي لئلا أشعل سيجارة أعرف أنها ستعكر مزاجي، ثم أشعلت واحدة من وطأة الزحام، فتضايقت أكثر. مررت من دون تفتيش الحقائب وسط جحافل الطلاب، الذين لم يصمَّم نظام التفتيش في المترو للتعامل مع أعدادهم وعشوائيتهم، أخرجت تذكرة اشتريتها مسبقًا من حقيبتي، ووقفت لانتظار القطار في المكان الذي أعرف بالتجربة أنه سيكون مواجهًا لباب الخروج في المحطة التي سأنزل بها. جلست بجواري أربع فتيات، وسبعة فتيان يحاولون بعنفوان وغباء إثارة اهتمامهن، أحدهم حاول لعب العقلة وآخر ألقى نكتة سخيفة، أكثرهم سطحية ضرب أضعفهم، وأكثرهم رهافةً تظاهر بالانشغال في سماع أغنية ما. فتاة واحدة عن يساري وشاب ثلاثيني عن يميني لم ينجحا في التلصص عليَّ خفية وأنا أتصفح هاتفي، وتوقفت أنا عن متابعة فتاة جميلة على رصيف المترو الجهة الأخرى حين لمحت شابًّا آخر يفعل الأمر نفسه. أقرأ خبرًا عن دولة ستسمح للفتيات بالخروج من الجامعة بعد الساعة الحادية عشرة صباحًا من دون إذن ولي أمرهن. ولسبب ما، تحضرني ذكرى قديمة جدًّا، نحن في المدرسة الثانوية، في الفسحة، الجو صاخب، من دون أن أتذكر في هذه اللحظة سبب ذلك، نتسلق بوابة المدرسة، أصدقائي سبقوني، واحد يقفز بالفعل في الناحية الأخرى من البوابة، وأسمع صوت سقوطه، واحد مقسوم، قدم في ناحية المدرسة، وقدم هناك، وآخر ما زال يحاول أن يطول حافة البوابة ليدفع جسمه للأعلى. أشعر بالإرهاق والضجر، وأعود للداخل، البنات مصطفات في الدورين الثاني والثالث بشكل مكثف لمشاهدة مباراة بين فصلين، الأولاد مزدحمون حول حدود الملعب، يحرز أحدهم هدفًا، تتسلل الكرة من المرمى خالي الشبكة وتتجاوزني، يحاول الولد الاحتفال بطريقة مشهدية وينظر إلى صفوف البنات بالأعلى، فأنظر بدوري، أرى فتاة جميلة جدًّا، أعرفها، وأعرف أنني في حلم يقظة، وأحزن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لأنني سأنساها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من حين لآخر، يغمرني لوهلة ذلك الحب القديم، لأجد نفسي في العالم مرة أخرى، وليس متأمِّلًا له، حتى أشعر بالحنين فعلًا لتلك المأساة، أنا الذي ورثت روح شاب كان يعلم تمامًا أن مرور الأيام يحول الآلام إلى شيء جميل لم تكنه قَطُّ، ويخطط أن يكون انتصاره الوحيد ألا يحب ألمه. وأعلم أن قدرًا من الوفاء يجعل من واجبي ألا أستسلم لأي تدفق عارم لذوات مندثرة، مثلما لا يجب أن يبتسم المرء حين يلتقي شخصًا أهانه، وأفسِّر الأمر بأنه مجرد حنين لرغبة الحياة العارمة التي تمكنت من تحمل هزيمة مبكرة جدًّا، هستيرية جدًّا، وفي وقت انتصار عام، حنين لرعونة المخاطرة، لفتوة الروح في غير موضعها، لأريحية الرهان على المعجزات، ولقرصة الوجود التي تطمئن المرء أنه يحيا لا يحلم. ربما ينهزم الناس في شبابهم، في حبهم الأول، لأنهم يخوضون معارك مستحيلة الاحتمالات، معارك يتعلمون تحاشيها بالوقت، وليس كيفية الانتصار فيها، مثلما يتعلم الثوريون، بالوقت أيضًا، أن يتحدثوا بلباقة، وبصوت هادئ، عن أفكار إصلاحية جدًّا، جزئية جدًّا، وتكاد تكون عديمة الأثر، لتحاشي معارك لم يعودوا قادرين على اقتحامها، يتعلمون ألا يأخذوا وجودهم بجدية ثانيةً.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كنا نسير في غابة، الجو بارد جدًّا، أنت تغني بصوت مرتفع، أنهرك، تشعل سيجارة وتأخذ نفسًا بصوت عالٍ فأنهرك مرة أخرى، تضحك وتخبرني أن العالم في ذاته يشكل مصدر إزعاج لي، وأن عليَّ أن أتأقلم مع فكرة وجودي فيه. أرد بأنه تزعجني قدرتك على الانغماس في الحياة، وأن ذلك يشعرني أحيانًا بأنني على وشك أن أفقدك، فترد ثانيةً أنني أحاول العيش بطريقة لا تجعل الحياة تنتبه لي، تنظر إليَّ في حب، ثم تنحني على زرافة نائمة وتغني أغنية لا أتبينها، لكن أحس بجمالها، فأتلفت في كل الاتجاهات خوف أن تنتبه إلينا الحياة، وأنسى أنني قد أفقد أثرك في إحدى تلك الالتفاتات.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على شجرة صغيرة تمد قدميك، وتريح ظهرك على حائط طويل كجدار قلعة، وتنظر إليَّ وأنا أحشو السحاب خلف ظهري لأنام، تحكي حكاية طويلة جدًّا عن اختياراتنا العشوائية جدًّا، التي تشكل حياتنا بشكل كامل، فيما قراراتنا الكبرى، أو ما نعتبرها كذلك في غمرة اندفاعنا الجماعي نحو اليوتوبيا، يدوسها الزمان هازئًا بها وبحماستنا. أنام، وأصحو، أنت مستمر في الحديث بالحماسة نفسها، تحكي حكاية أخرى عن فتاة جميلة جدًّا في بلدة بعيدة جدًّا تحبها جدًّا، وبينما أتابع وجهك الجميل وهو يشرق على سيرتها، أفكر أن أخبرك أنك أكثر إنسان أحببته في حياتي، بدلًا من ذلك. أحكي لك بدوري عن فتاة لم أرَها، وأحبها جدًّا، وأن مأساتي في شعوري أنها الشخص الوحيد الذي يعرفني، وفي معرفتي بمدى حماقة ذلك، تخبرني أنك فكرت في حبها فعلًا، ويطمئنني ذلك أنني لم أجن تمامًا. تنام، وتصحو، وأنا مستمر في الحديث عن كيف نصنع تماثيل وننفخ فيها من روحنا، ثم نقع في حبها، ونتعجب أنها لا تستجيب، وننام، لنصحو، أصدقاؤنا مستمرون في الحديث عن حكاياتهم، نسخر منهم، تناولني مشرطًا وتعلمني كيف يمكنني أن أقطع الروح لأجزاء صغيرة جدًّا، ليكون من المستحيل تحطيمها تمامًا، أعلمك بالمقابل كيف يمكنك أن تفرد حبك ثم تصنع منه خيطًا رفيعًا جدًّا، وتسير عليه وأنت تحمل روحك، من دون أن يقع أي منكما، أكاد أسقط وأنا أفعل ذلك، فتكاد تسقط روحك بدورها، وبدلًا من أن أخبرك بحبي مرة أخرى، أسخر من كم أنت تلميذ بليد، فتتعالى ضحكات الأصدقاء.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بشكل عام، يمكن تفسير اقتحامية الناس في الحياة بأمرين، إما أنهم وحيدون جدًّا، بحيث يرون أي إنسان كفرصة لحميمية محتملة لا يجب إهدارها تحت أي ذريعة خجل، فالغريق لا يخجل من الصراخ، أي في إدماج الآخرين بقوة الصرخة في مأساته الشخصية، أو أنهم من يمتلكون من يطمئنون لوجوده إلى الأبد، بحيث يمكنهم تحمل كلفة المقامرة بالتعامل مع الناس باقتحامية وحميمية مفاجئة ومتسرعة، إما لأنهم متيقنون تمامًا بأن اقتحاميتهم تلك لن يمكن تفسيرها على أنها وحدة وحشية تلتهم من أمامها، وإذن سيهرب الناس منها، أو حتى معرفتهم أن خسارتهم في تلك اللعبة ستكون خسارة عديمة الأثر، إذ سيمتلكون على الدوام من يحكون له تلك الخسارة كقصة محرجة مثيرة للضحك، لا للرثاء.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أريد أن أراك ثانيةً للمرة الأولى

أريد أن نمشي معًا، آمنين، نخطط لإعادة هيكلة العالم، بثقة مفرطة، وكما تقول، بعدم إدراك لموقعنا في التاريخ

أن أعاتب أحدًا بشدة، وأصرخ فيه، متخليًا عن دور العاقل الرصين، مطمئنًا أن بيننا ما يسمح لي، أخيرًا، بالانفجار

أن أحكي حكاية طويلة جدًا، شخصية جدًا، من دون احتراس أنني أحكيها للمستمع الخطأ

ألا أكون مرة أخرى، وإلى الأبد، الطرف الأكثر حماسة

ألا أجد في كل بيتٍ جديدٍ، مخاوف جديدة، لم أختَرها، وعليَّ أن أتعايش معها

ألا أتمنى كل يوم، أن تدهسني سيارة مسرعة، لتخلصني من مكائد لم توجد إلا في خيالي

أن أعبِّر عن رأيي بحماسة من يظن أن رأيه سيعني شيئًا ما

أن يتفتح لي عالم غريب حين أقرأ صدفة كتابًا ما

أن تؤنسني قصيدة، وأتماهى مع بطل رواية

أن أكتشف فيلسوفًا، يقنعني، لفترة ما، أنه نجح في تفسير العالم فعلًا

وأن أتعجب بعدها، كيف انطلى عليَّ هذا الكلام الأحمق؟

ألا أصوغ مشاعري كنكتة لأمرر حميمية ستُرفض إن أعلنت عن نفسها صراحةً

ألا يدفعني انعدام الجدوى لعقلنة القبح والاستغلال والسفالة

وألا أضبط نفسي متسامحًا مع قسوة موجهة إليَّ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ألا تمتد يدي إلى يد ستنسحب بهدوء، وألا يتجمد وجه حين أمرر يديَّ عليه

أن تلقي عليَّ قصيدة مراهقة جدًّا، بفخر، في لقائنا الأول، في ميكروباص

وأن أسمع صوتكِ فرحًا وجسورًا وثقيلًا للمرة الأولى حتى أهم أن أقبِّله

أن تقولي لي في موعدنا الأول نكتة بذيئة جدًّا، حتى أشعر بالخجل، في تبادل غريب للأدوار

ألا تنفجر قنبلة حب أحدنا للآخر، بينما نحن على وشك عبور حقل ألغام صداقتنا

وألا تكون تلك القنبلة، أبدًا، حبكِ لي

وألا يكون حبي، لأخرى، هاوية، تحاول جاهدة أن تدور بي حولها

ألا أعجز عن مساعدة أحد وعدته بالمساعدة

ألا ترتعشي حين أمرر يديكِ على ندبات روحي

وألا تفسري قولي لكِ إنني سأكون دائمًا بجوارك، على أنه محاولة مهذبة لإبقاء مودة ما في علاقة ميتة

وألا أتعمد الخطأ في تأويل رفضكِ لي، على أنه محاولة لتخفيف الاندفاع، وليس قطع الطريق

وأن أندفع في اللحظات المناسبة، من دون أن يعرقلني تحفظي الزائد

أن تثيرني امرأة كفتى في السادسة عشرة، ويخدعني أمل كطفل غر، وأتكلم بصوت عالٍ من دون أن أتلفت مع كل جملة

ألا يصير كل ما أحبه بعيدًا جدًّا حتى تصير أحلامي كأحلام الأطفال، وجبة خيالية دسمة لواقع شره وصائم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وأن أنسحب حين أكاد أسقط، من دون أن يدفعني شعوري بالمسؤولية للاستمرار حتى أنسحق تمامًا

وأن أشعر بالامتنان حين أرى ولدًا يخبر فتاة جميلة جدًّا بحبه لها، لأنه على أحدهما أن يفعل

وأن أرى شيئًا جميلًا جدًّا، حتى أشعر بأنه لن يفوتني أي شيء حين أموت

وأريد، قبل موتي، أن أكتب شيئًا ذكيًا وجميلًا جدًّا

ليس لمراوغة الموت بمحاولة الخلود الأدبي

ولا لتمرير وهم حكمة ما إلى القادمين

بل للدفاع عن ما سيصير ماضيًا

أننا لم نرحل، لقلة في الذكاء أو لنقص في القدرة على استيعاب الجمال

كانت لعبة غير عادلة

وليس بوسعنا هزيمتها إلا على المدى الطويل جدًّا

أن تكون أشباحنا أكثر ألفة وطمأنينة من أطلالها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يُهيأ لك أننا سنصمت للأبد، قبل أن تلقي ملاحظة جانبية جدًّا، تتفرَّع منها طرق وتنشأ حولها بيوت وأحزان وأشجار وجسور، وتمـر فوقـها عصـافير وصـقور وتـأملات وجوديـة وطـائرات، تخترقها جسور وطرق ترابية متعرِّجة وعتابات متبادلة وشتائم وزفرات ملل وميكروباصات مزدحمة وقطارات متأخرة وأحضان مرتبكة وجلسات سريعة في بيوت لا تنتهي، ويتسلل من أسفلها أطفال وقصائد ورسائل وكتب ومسيرات طويلة جدًّا في شوارع جانبيـة جدًّا. بهذا المعنى، تخلق الكلمة العالم، وهكذا، بالتعبير الشـائع جـدًّا، يجـر الكـلام بعضـه، كحـاوٍ يُخـرج مـن فمه أقمشة مزركشـة إلـى مـا لا نهاية، أو كلاعـب ورق غشَّاش ينتظر لحظة غفلة ليسحب ورقته المنتصرة من كمه، يسحب احتمالًا لم نتصور أنـه ممكن إطلاقًا، بكلمة قوية تمسكه من قفاه وتطيح به من ظلامه إلى الشارع. كل الطرق تؤدي إلى أماكن مدهشة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في البداية، بدا تعارفنا للمرة الأولى أليفًا جدًّا، كأننا نتذكر شيئًا نعرفه أصلًا، ثم كانت صداقتنا، نقدًا عقلانيًّا تمامًا لخطأ غريب: كيف أمكننا ألا نكون أصدقاء؟ الصداقة التي قاومنا من أجلها . وبكل جدية . الحب الذي حاول . جاهدًا بدوره . أن يحولها إلى أمر آخر. هذا الأمر، الذي سمَّيناه صداقة مقربة، ثم حميمية، ثم صداقة مرتبكة، ثم رسمنا موقعه الجغرافي بين الصداقة والمحبة لنعرف أين يمكننا أن نتجوَّل به بالضبط، وأخيرًا، قرَّرنا ألا نسميه وألا نحاول رصده على الخريطة، كحيلة يائسة لمراوغة ما فرض حضوره من البداية، الحضور المطمئن الذي لم يعبأ بكل خرائطنا، وبالألفة نفسها والبداهة التي صاحبتنا في كل هذا الطريق، بدا استسلامنا لهذا الأمر، أليفًا وبدهيًّا، وجميلًا بقدر فشلنا الرائع في الهروب منه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هذا ليس سرًّا، نكون مريحين للناس ومستريحين معهم حين نتخلَّص من وطأة الرغبة اللحوح في كسر الاغتراب، الرغبة التي تعزز الاغتراب بجعله هاجس كل علاقة محتملة، بطلها النرجسي الذي يظن كل شيء يتعلق به وحده، والتي لا يخلصنا منها سوى حصولنا على اعتراف ما، اعتراف تصير، بجانبه، كل علاقة شاحبة وهزيلة، وغير قادرة أبدًا، مهما كانت سطوتها الروحية، على نزع هذا الإحساس المطمئن بعدم الرغبة في الهرب. إنه لا يكسر الاغتراب مطلقًا، بل يتركه في مكانه، هذه المرة ليس كشبح يهددنا بفضح غربتنا في كل لحظة، لكن كطفل ضجر من الابتعاد غير المبرر عن البيت، الطفل الذي نذكِّره أن هناك عينًا رأتنا، وبفضلها، لن نضيع في أي أرض.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أنا الآن في التاسعة والعشرين

في التاسعة عشرة قالت لي صديقتي إنها لن تنساني أبدًا

في العشرين أضعت إيماني، وعثرت على صديق عمري

في الحادية والعشرين سرنا مسافات طويلة جدًّا، ساخرين من كل أفكار الآخرين

في الثانية والعشرين أدركت أن تشييد اليوتوبيا العامة لا يمكنه أن يعوض انهيار العوالم الشخصية

في الثالثة والعشرين اكتشفت أن المشهد الجميل فنيًّا، بذاته، يمكنه أن يشوِّش على كل مشاعر الخوف والهشاشة والإحساس بالفقد الموجودة بداخله، ليصير ذكرى جميلة، على الرغم من أي مقاومة متذاكية لهذا

في الرابعة والعشرين عرفت أن الغفلة أهون من التبصر بكارثة لا يمكن ردعها

في الخامسة والعشرين اعتبرت أن التبصر بكارثة لا يمكن ردعها أفضل من العيش كأنها لم تحدث، وأفضل بالتأكيد من الاحتفال بها

في السادسة والعشرين فوجئت بأني نسيت صديقتي التي لن تنساني أبدًا، لم أتوقف عن حبها، ولم أمحُها من ذاكرتي، نسيتها، كما نسيت ما كنت أدرسه في الجامعة لخمس سنوات على نحو كامل، وأربكني ذلك أكثر مما أسعدني

في السابعة والعشرين أحببت أجمل فتاة في العالم، كأنني أتذكر ما نسيت، وعرفت أن الحماقة المندفعة تظل على الرغم من كل شيء أكثر رزانة من الحكمة المتأخرة عديمة الجدوى

في الثامنة والعشرين تيقنت بأن ما ينقذ المرء هو نفاذ الإرادة لا

22 دقيقة متبقية من «لن نصنع الفلك»
81%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وضوح البصيرة، وأن السقوط ليس، بأي شكل، حلًّا لفقدان الاتزان

في التاسعة والعشرين، وبعد كل هذا، لا أظن أنني أتمتع بأي حكمة زائدة عن فتى التاسعة عشرة، كنت شابًّا ذكيًّا، يمكنني حتى التباهي بذلك، لكن على الأقل، لا يمكنني الادعاء أن الزمن قد مر سريعًا، ولعل في هذا - بجوار حبي - مكمن طمأنينتي الخافتة، لقد تجرعت ما مر من زمني كاملًا، وبتبصر حاد، علام إذن يمكنني الندم؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حين تمر يداك على حديد بارد، آخر ليل، فوق نهر خالٍ إلا من مركب لصيادٍ غلبه النوم

أو تمشي مطمئنًّا تمامًا في شارع مظلم، بعد لقاء عادي تمامًا، ونحو مكان شديد الألفة

حين تقفز، مزهوًّا بحيويتك، عدة مرات فوق حواجز لطريق، نسوا، كعادة كل شيء في هذا البلد، أن يجعلوا فيها ممرًّا إلى الخارج

حين تقبِّل حبيبة بفتور، أو تكتشف أنك تعيد حكايتك المفضلة للأشخاص أنفسهم مرة أخرى

وحين يخيفك الوعي بالرتابة التي أصبحت فيها، لدرجة أن تستنتج متسرعًا قدوم العاصفة

وتفكر، أيها الشاب الذي كنته، أن اللحظات المطمئنة جدًّا لدرجة عدم الانتباه لها، هي ما يفلت للأبد، ولا تعود حتى كذكرى

ويمكنك فقط استنتاجها، بحساب الاحتمالات الممكنة لمسار شخص ما، يكاد يكون أنت

بالضبط كما يمكنك استنتاج أن الهدوء يسبق العاصفة، ليس لأنها تكون قادمة فعلًا

بل لأن الطمأنينة أحيانًا تكون مفزعة كما الموت، ولأن الضجر، هذا الخوف المراوغ جدًّا من الفناء حيًّا، يصنعها، ليعادل احتمال النجاة باحتمال التطاير

التوتر، الذي سيعتبره بعض الناس الحياة نفسها، حيث هناك دائمًا شيء جديد تفعله، تفعله بحنين للرتابة القديمة، وباتجاهها، الرتابة التي تتعلم بالوقت، أنها لم تعد حتى محض ذكرى

التوتر نفسه، الذي يمكن تفسيره على أنه انغماس في الانشغال،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بدل التحديق في وجه حقيقة كبرى، لا يمكن تأملها إلا في الرتابة التامة، لولا أنها تتحول في النهاية إلى حدس دائم بالعاصفة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لا أذكر شيئًا حدث كأنه حدث بالأمس، إلا الأمس فعلًا

كل ذكرى في مكانها، في سنها الصحيحة، بصبيانيتها وغموضها وحكمتها المتأخرة

الطفل في الرحلة العائلية، الولد في ملعب المدرسة، المراهق الذي يسير في قطيع من الذئاب البشرية وراء فتاة ما، والشاب المتقد حماسةً لنقد كل شيء

الطفل الذي يكتب مذكراته عن شجرة، والولد الذي يحاول مراوغة أصدقائه حين يسألونه عن «الجو» التي يكتب لها رسائل يومية، والمراهق الذي يكتب شعرًا شديد الركاكة، والشاب الذي يؤلف قصصًا رمزية يداري فيها ارتباكاته أمام عالم لا يكف عن التفتح

الولد الذي أخرجوه في مظاهرة لا يعرف سببها، والمراهق الذي يتسلل من المدرسة ليحضر مظاهرة تدعو لإصلاح غامض، والشاب، الذي في خضم ثورة منتصرة، يخبر أصدقاءه أنه لا حل سوى الهجرة، لأن كل شيء على شفا الانهيار

ما فعلته بالأمس، لم يمكنني فعله من سنة واحدة، من عامين فقط كنت أقل خوفًا وأكثر اقتحامًا، لكن أقل ثباتًا، ومن بضعة أعوام، ربما حتى كنت شجاعًا، وإن كنت أكثر هشاشة

البنت التي أعجبني لطفها صبيًا، والفتاة التي أحببتها مراهقًا، والشابة التي عشقتها شابًا، والمرأة التي أبهرتني على الدوام، مئات اللواتي أحنيت رأسي للنظر إليهن مرة أخرى

المشي في طريق كل بيت سكنته، والمخاوف الهستيرية التي أهرب منها من مكان لآخر فأجدها قد سبقتني

تنهيدة الاقتراب من الأماكن القريبة من البيوت، وتنهيدة تحولها إلى أماكن غريبة تمامًا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مئات المواقف المرتبكة التي بدت ثقيلة كالأبد، وانتهت حتى أن ترسخ نفسها في الذاكرة، وعشرات الدوائر التي تبدأ بالدهشة، فالصداقة، فالحميمية، فالانحلال

في كل الأحوال، ستجر شبابك خلفك، والأفضل أن يكون صاخبًا ليؤنسك كضوضاء مطمئنة بعيدة جدًّا

وفي كل الأحوال، ما تراه الآن سيزول من أمامك، والأفضل أن تتمعن فيه، ولتحنِ رأسك من أجل النظرة الثانية، فلا شيء أبعد من ذلك

ومثل كل أحد، أكتسب حكمة مبتذلة وسخيفة وجبانة، في نظر نُسَخي الأكثر شبابًا

لكن لأن شيئًا لم يحدث بالأمس سوى الأمس، لا يمكن لماضيَّ أن يلاحقني، مثلما لا يمكنني التشبث به

ربما هذا أعدل ما في اللعبة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تهزين رأسكِ ضاحكة، مصطنعة يأسًا جميلًا من الفشل الذي يلاحق محاولاتك لتعويدي عدم كسر الأحاديث الجدية بنكات سريعة، بعدما قلت لكِ، في سياق تخطيطنا لإكمال الطريق معًا، إننا، كما يقول البيان الشيوعي، ليس لدينا ما نخسره سوى القيود، كنت أتحدث بجدية تامة، لكن، وإحقاقًا للحق، وقبل أن تضحكي كنت أفكر أن أكسر جديتي، وأكمل مقتبسًا: «فلترتعد الطبقات السائدة من الخوف».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أســتطيع بــالطبع، أن أبطـئ حركـات قـدمي المتوتـرة، وأنـتِ تحدثينني عن خوفي الزائد عن الحد

أن أمشي أكثر من خمسة كيلومترات من دون أن يلحظ أحد نوبة الهلع التي تمر بي

وأن أقول سبع نكات متتالية، في أكثر لحظاتي حزنًا

أن أخفي دهشتي تمامًا، حين يقول متذاكٍ أمامي قصة مثيرة، لأستمتع بخيبة أمله وهي تكبر أمامي

وأن أبدي مودة مجانية، تجاه الأشخاص اللطفاء المرتبكين

وتعرفين أنه بوسعي، أحيانًا، أن أعبِّر عن عواطفي متغلبًا على كل هواجسي بخصوص الأماكن والأزمنة

حياتي محصورة فعلًا، لكن بين المكانين اللذين أتحرك بينهما، أمشي في سبع طرق مختلفة، أكثر من خمسين عمارة وأكثر من أربعين محلًا، فيها أكثر من ألف شخص، أصادف في الشوارع على الأقل ثمانين شخصًا يوميًّا، وأستمتع معهم بعشرات القصص التي لا تحدث إلا في خيالي، لكنها تحدث

أصدقائي قلائل، لكنهم أصدقاء فعلًا، ويمكنني السقوط عليهم في أي لحظة، من دون أن أرتطم بالأرض

بـل أيـضًا أسـتطيع أن أجعلـكِ تكملـين شكواكِ مني من دون أن أقطعها بنكتة، على الأقل يمكنني دائمًا أن أحاول

أستطيع أن أحفظ أسرارًا لسنوات طويلة، حتى أنساها تمامًا

وأعرف بعض الأشياء، التي يمكنني، في بعض الأوقات، أن أصنع منها حكاية ممتعة

وأستطيع، على الدوام، أن أعترف، صادقًا، بعيوبي، من دون أن يكون ذلك مجرد تكتيك لإنهاء النقاش

85%
الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في قلبكِ، عالم جميل جدًّا تحبين أن نخلقه معًا

ينقصني بالطبع أن أؤمن، مثلكِ، بقدرتي على تشكيل العالم الذي أريد

لكن، في قلبي، مثلكِ أيضًا، عالم جميل جدًّا كذلك، مستند، بشكل كامل، إلى وجودكِ فيه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

غنوا لي كلما فشلت في أن أكتب نشيدًا

اصرخوا فيَّ كلما ارتفع صوتي

هزوا كتفيَّ كلما ذهبت بعيدًا في الاعتداد برأيي

قاتلوني إذا استبدت بي كراهيتي

وطمئنوني، إذا فشلت في مقاومة مخاوفي

واذكروا، على الرغم من كل عيوبي، أني لم أروِّع مطمئنًا

ولم أحب نفسي أكثر مما أحببت أصدقائي

وربما، لو كنت أكثر شجاعة واقتحامًا، لغيرت العالم للأفضل

لولا أن يدَيَّ ترتعشان كلما اصطدمت بالعالم

مأساة الدنيا أن كل جمال هش، وكل شجاع أرعن، وكل ذكي واعٍ بمحدوديته

كل لطيف سيئ الحظ، وكل كريم لم يمتلك يومًا سوى حسرته

فغنوا لي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في لحظة ما، ستجد نفسك مضطرًّا إلى إعادة ترتيب غرفتك. الملابس الملقاة، الزجاجات الفارغة، السجائر المطفأة، الأوراق الزائدة، بقايا الطعام، الكتب التي قرأتها، الكتب التي لن تقرأها، الجوارب القذرة، الأدوية المتراكمة من تخيلاتك المرضية، الأكياس الفارغة، ربما حتى ستضطر، أنت الذي لا تحب الشمس أن تتلصص عليك، إلى أن تفتح الشباك حتى آخره، الكتاب الذي لم تقرأه من أكثر من سنتين ربما لن تقرأه أبدًا، الجوارب التي تتركها في انتظار لحظة فراغ للغسيل، ستلقيها في سلة المهملات، والأدوية التي تخزِّنها لعل المرض يأتيك مرة أخرى سترميها أيضًا لأنها تجعل المرض حاضرًا كل وقت، ربما ستشتري كتبًا جديدةً لكيلا تقرأها، وستزور أطباء آخرين ليقولوا لك الشيء نفسه، وستترك بقايا أطعمة أخرى إلى أن تأتي تلك اللحظة ثانيةً، ملابسك ستغسلها وترتبها لترتديها ثم تلقيها بعشوائية في المرة المقبلة، ليس بالضرورة أن تتغير، لكن الزمن المتراكم أكثر من اللازم يسجنك داخله، والشباك المفتوح سيغلق مجددًا لكن على أزمنة جديدة، حتى حين.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فـي مجـالس صـاخبة وهادئـة، محتـدمة وحميميـة، فـي أبـراج ومساجد وبيوت ومقاهٍ وعيادات وفي الشوارع، متيقظين وثملين ومنتشين، متحمسين وضجرين، خضنا نقاشات لا تنتهي

الكثيرون تحدثوا بحب عن عالمهم المثالي الذي على وشك أن يكون، ولم يكن

الكثيرون استعادوا بحنين أصيل أزمنة ذهبية مستعارة، لكنها لم تعُد

منا من كان ينزوي ويبني في خياله عالمه الخاص، ومنا من كان يستعرض أمام الآخرين قدرته على خلق الجمال من كلمات

منـا مـن ضـحك، وبكى، سخر من زملائه ثم عانقهم بكل مودة ممكنـة، ومنـا من اختـار من بيننا من يصلحون ليكونوا أعداءه المُسلَّين طول الحياة

تلعثم بعضنا في كلامه، وتدفق آخرون

أحيـانًا، وباختلاف العوالم الممكنة، مررنا المصاحف فيما بيننا، وأحيـانًا الكتـب، وأحيـانًا القصـائد والموسيقى، وكثيرًا السجائر والخمر

استعنا بأشباح شيوخ وحكماء وفلاسفة، واستضفناهم في مدننا العابرة، ثم تركناهم وحيدين

حـاول البعـض خلـق أكـوان جـديدة، والبعـض بنـاء بـلاد طيبـة، واكتفى البعض بمحاولة تشييد بيوت مطمئنة

حـالمون كشـعراء كلاسـيكيين وعاشـقين، وملهمون وعقائديون كـأنبياء لـم يتلقـوا بعـد أي رسـالة، وعـاجزون كسـحرة نسـوا كل تعاويذهم

كانت كل العوالم التي نبنيها، تومض وتطفئ، ونسير في عالم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وحيد لم نختَره، وإن ظل هناك على الدوام

بطيئو الخطوة، ومنهكون، من ثقل ما شيدناه في قلوبنا، مثقلو الأنفاس من غبار حطام عوالمنا التي لم نستطِع تدميرها تمامًا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أحيانًا، أتمنى أن أفقد نفسي وأنا أسير في طريق مزدحم من دون أن أنتبه. وداعًا للقلق المعمم، للضجر المفاجئ، للعصبية الشديدة التي تندلع وتنطفئ بسرعة بعد أن تورطني في ما لا أستطيع إصلاحه، للسيناريوهات الكارثية التي تحاصرني في كل موقف، للألعاب النفسية التي يوقعني عقلي فيها، أريد عيوبًا جديدة غير تلك التي مللت منها، عيوبًا أكتشفها ببطء وأحاول، مرة جديدة، من دون أي نجاح، أن أتخلص منها. ليس في الأمر على الإطلاق. على ما أعتقد. أي كراهية أصيلة للذات، غير أني مرهق وقلق وضجر وعصبي، والمشقة في قلبي وفي الطريق، ومع كل هذا أحاول فعلًا، بكل ما أملك، الوصول إليك.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كل من أحببتهم في حياتي، كانوا شجعانًا، عفويين، وتكاد أقدامهم لا تلمس الأرض من فرط اندفاعهم. في قلبي كلهم متحفزون كما لو كانوا يخطِّطون لثورة، في حين يحاول قلبي المحب والضجر تخفيف تمردهم بصب الكثير من الطمأنينة في كؤوسهم. يقول صديقي إني أنجذب لاإراديًّا لأضدادي، وتقول صديقة إنني أبحث فيهم عن نفسي التي أحلم بها، في حين أعتقد عن نفسي أن الخوف أعمى، وأنا أريد أن أرى العالم، ولو كان ثمن ذلك أن يكون كل أحبائي نوافذ أطل منها، من العلياء المفتعلة لرضاي وهدوئي، لكل ذلك الصخب في الأسفل، كل ذلك الصخب شديد الجمال.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أقول لأصدقائي كلما حدث أمر سيئ: «اطمئنوا، في العالم الموازي في قلبي، لا زال كل شيء بخير. في العالم الموازي في قلبي، أفضل المسارات لكل شيء تستمر في الحدوث، الطرق أهدأ وأقل ازدحامًا، الأشجار أطول وأكثر انتشارًا، الناس في الشوارع يضحكون بلا سبب، حتى الفتيات يبدون أقل حزنًا وأكثر جمالًا، والفتيان أكثر ثقة وأقل رعونة، حتى المشاجرات أكثر شجاعة وفي الوقت نفسه أقل دموية، وتنتهي بانتصار الجميع، ولا يمكن لأحد أن يسلب منا من نحب، أو ما نحب». يقول أصدقائي: «ما تاخدنا نعيش في العالم الموازي في قلبك دا يا بلال»، أنا نفسي أتمنى هذا يا أصدقاء، فلسبب ما، يسهل تخمينه، يسبِّب لي هذا العالم الجميل الساذج والطفولي إحساسًا بالوطأة والوحشة، يحاصرني أينما ذهبت، وحشة لا يمكن تخطيها إلا بدمج العالمين معًا أو انهيار أحدهما بشكل نهائي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ليست لديَّ شعرات بيضاء في رأسي. وجهي يبدو أصغر من سني، وأصغر كثيرًا من روحي الشائخة. أنا الآن في الثلاثين. ضجر وعصبي وأعاني من الوساوس القهرية ومن الشعور الطاغي بالمحاصرة. لم أحقق ما خططت له لأني لم أخطط لأي شيء، تركت الأشياء تدفعني في الاتجاه الذي تريد، وأحلم برياح قوية تطيح بي على الرغم من محاولتي لخلع قميصي وتحويله بقوة الرياح إلى بالون يأخذني إلى بعيد. قدماي مثبتتان في الأرض لدرجة تعرقل اندفاع من أحب، وكلهم مندفعون. لكن لديَّ من المشكلات ما يكفي لحصد كل ما يمتلكونه من نظرات التعاطف العاجز. ليس نادرًا أن يوقفني أناس لا أعرفهم ليخبروني بحبهم لي، هذا رزق، غالبًا لا أستحقه، أحمد الله عليه، وإن كنت أحب أكثر أن يُفك قيد قدمَي. متردد ويمكن أن أستغرق يومي كله في مقارنة اختيارات لا تختلف عن بعضها كثيرًا. بطيء البديهة ويناسب ذلك بطء انطلاقاتي ولا أعرف أيتهما الصفة الأكثر أصالة التي تخلق قرينتها. أميل للمزاح الصاخب دومًا وفي كل المواقف، يُغضب ذلك أصدقائي، ويفاجئ من لا يعرفونني ويتصورونني كشخص وقور. أنا الآن في الثلاثين، وينقذني من الانشغال بالكبر في السن أن مشكلاتي، كحال الكثير، أكبر مني، وفي مواجهتها، قبضتاي كقبضتَي طفل يواجه وحوشًا وحده. في مواجهة عالم لم نستطِع تغييره، بكل ما امتلكناه من فتوة الخيال وجمال الإرادة، يحق لنا أن نظل أطفالًا إلى الأبد.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يأسرني كل شيء في بدايته، أسمع أغنية جميلة فأظن أني لن أملها أبدًا، ثم تأتي أخرى، أقرأ كتابًا وأحبه، فأقرأ كل كتب كاتبه، وأقول سأقرأ كل يوم كتابًا، أفعل ذلك بعض الوقت، ثم أكتب قصة، فأتيقن أني لبقية حياتي سأكتب قصة كل يوم، أكتشف لعبة جديدة، فأفرغ لها يومي تمامًا. يغرق قلبي في الأشياء، ثم يضجر ويبحث عن بحار أخرى، كل شيء تعلمته، كل شيء جميل فعلته، مدين لهذا الغرام اللحظي، الولع الطاغي بكل أفق جديد، كدَيْنه لهذا الضجر الذي كلما انغمست في شيء، أفاقني. لا زالت هناك حماقات أخرى لنرتكبها، قبل أن نفقد الفرصة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كلما راودتني فكرة أني أحب أن أعيش يومًا واحدًا رتيبًا من دون مخاوف ينسجها عقلي ببراعة، أفكر في أن الطمأنينة تأتي من العكس تمامًا. الاعتقاد أنها خالدة، وأن الغد وبعده سيكونان جميلين أيضًا. إذن يا رب أنا لا أطلب هدنة مؤقتة من الخوف، وبالطبع لا أطلب عالمًا جميلًا، بل أطلب حماقة أبدية.

91%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

روحي هشة كطفل تائه، عقلي مستثار كجنرال في معركة، أود أحيانًا أن أحتضن العالم كله لأحميه، وأحيانًا أن أركض بأسرع ما يمكنني كأن العالم كله يلاحقني. كل شيء بسيط عليَّ أن أفعله، أفكر في مئات الاحتمالات له، فلا أفعل شيئًا. في لحظة أنظر إلى العالم بثبات كأنني على وشك غزوه منفردًا، في الأخرى أغمض عينيَّ لأستطيع التنفس. في لحظة أحب أن أحيا حياة صاخبة أرى وأفعل فيها كل شيء، في الأخرى أتمنى أن تمضي أيامي بتكرار رتيب أبدي. أتحرك في كلا الاتجاهين معًا، فأظل في مكاني، تائهًا ومستثارًا كجنرالٍ طفلٍ تائهٍ في معركة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أعطيت سائق التاكسي سيجارة أملًا في كسب مودته المؤقتة من جانب، ومن جانب تهدئة لفورة غضبه إثر مشاجرة أخرجته منها قبل أن يضربه الآخرون، أمنت على كلامه بحماسة حين وصفهم بالجبناء. ضحكت على نكتة غير موفقة من بائع، مساندًا له في محاولته الخاسرة لإثارة انتباه فتاة. قلت لصديق قطار عابر يشكو من الحياة ما يحتاج إلى سماعه، وليس بالضرورة ما أؤمن به. أشحت بعينيَّ عن فتاة جميلة، على الرغم من أني كنت أود النظر أكثر، طمأنةً لها في شارع مظلم. لست غبيًّا، وأعرف تمامًا أن العالم في وضع أسوأ من أن تنقذه لفتاتنا الطيبة، لكنها كل ما نملكه، حتى لو لاحقتنا لعنات «ماركس».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ليست أجمل أيامي ولا أسوأها، صحيح، أصحو من النوم أريد أن أبكي، لكني، على الأقل، أنام. أتوتر كلما غادرت غرفتي، لكني، على الأقل، أغادرها. أحكي لكل من أعرفهم عن نوبات الهلع التي تصيبني كل لحظة، لكني، على الأقل، أشعر بالأمان الذي يجعلني أحكيها. ليس لديَّ الثبات النفسي الذي يجعلني في أحسن نُسَخي، لكن لديَّ ما يمنعني من أن أكون في أسوئها. أحلامي كلها كابوسية، لكني، على الأقل، أنساها بسرعة. أشعر كأن العالم كله يسقط على كتفيَّ، لكنه، على الأقل، لا يحطمني تمامًا. آخذ نفسًا عميقًا وأحاول القيام به وبي، من دون أن ينهار كلٌّ منا، فلا ينهار شيء، ولا يقوم شيء. كأن هذا، بالضبط، ما يمكنني مجاراته، لكن، لو سقطت شعرة أخرى على كتفي، فلن أسمع إلا أصداء الانهيار.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

دفعتني شجرة للكتابة المرة الأولى، أحضر خالي عمالًا ليقطعوا شجرة عملاقة من الشجر المحيط بمنزلنا، كنت في الثامنة، اشتريت دفترًا صغيرًا، وكتبت فيه لذكرى هذا اليوم، أعتقد أنني لم أكتب سوى التاريخ وشيئًا مثل: «جاء العمال وقطعوا الشجرة»، كانت شجرة ستينية، زرعها خالي، خال أمي لو أردنا الدقة، وهو طفل، أصبحت أطول من منزلنا، وخاف إن اشتدت الرياح أن تهوي الشجرة وتحطم المنزل. لم أكن حزينًا تمامًا، غير أن شعورًا بالهيبة وبأن شيئًا عظيمًا يحدث، غمرني تمامًا. توقفت عن تدوين مذكراتي بعدها بيوم واحد، في اليوم التالي، مساءً، عادت أمي من المستشفى، فتحت الدفتر، وكتبت: «جاءت ماما ومعها أخي الجديد». وبسبب هذه المصادفة، لا زلت أذكر تاريخ اليوم الذي قُطعت فيه الشجرة، بمرور الوقت سنقطع كل الأشجار العملاقة التي تحيط بمنزلنا، غير أن أيًّا منها لن تخلف شعورًا مهيبًا مرة أخرى. بشكل أو آخر، صاحب غياب تلك الشجرة أول شعور واعٍ بالفقد ينتابني، فلم أفقده قَطُّ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هناك الكثير مما أجهله، لكني أعرف بعض الأشياء عن هذا العالم، بالتحديد عن كيف ينتهي. رأيت الكثيرين يتحطمون كآنية، واحدًا تلو الآخر، كلما تحطم واحد، وقبل أن نتمكن من جمع أجزائه، تحطم آخر. نحمل مضادات الاكتئاب في جيوبنا كما نحمل الهواتف، أكثرنا شجاعة تحطموا في البداية لأنهم حاولوا المواجهة، أكثرنا هشاشة تسلحوا بسخرية عدمية زائفة في حين تتناثر أجزاؤهم على الأرض. تهكمنا على محدودية طموحات آبائنا، ثم تمنينا حياتهم الرتيبة. في الثلاثينيات من أعمارنا، ونحمل حكمة الشيوخ عن فضائل الصبر والصمت والمداراة. ملصوقة أجزاؤنا بصمغ من التواطؤ والتظاهر بالصلابة، تتمحور أحاديثنا دومًا عن آخرنا تحطمًا. تعلمنا بالوقت كيف نُغوي بالتوافه لنحتمل الضيف الثقيل، الوقت نفسه. أجملنا، يحتقر ذاته، أجرأنا ينهزم أمام نوبات الهلع. أوسعنا حيلة، تتساقط أحلامه، في حين يقفز بخفة من مكان لآخر، متظاهرًا بأنه حطام شخص آخر. أكثرنا أملًا، يقول إنه حين سيجمع حطامه سيصير شخصًا آخر، أفضل. أكثرنا يأسًا يخشى لو جمَّع نفسه ثانيةً أن يصبح أحد أعدائه. ويعزينا أننا نعرف أمرًا أو اثنين عن ارتكاب الجمال، عن الصداقات الصلبة، عن فتوة الروح، ويعزينا أننا نعرف تحديدًا أن العوالم تنتهي، وتبدأ أخرى، كان قدرنا جميلًا في إحداها، تحطمنا في آخر، وربما في ثالث، سنجرب أحياءً نشوة البعث، وتعود للروح فتوتها، وكما في نهاية الملاحم، وبدايتها، تزين المدينة بزينة لم يرَ مثلها، وتدق الطبول، وتزغرد النسوة، وتعم الاحتفالات، بينما يعيد كل منا، آخر أجزائه، إلى جسده.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لنحتمل العالم، لا بد لنا من بعض الغفلة الذكية، يشبه الأمر المشي في طريق في حين تتساقط الشهب في كل مكان، ليست هناك طريقة حسابية لتفاديها، ولا وقت لذلك، كل ما عليك أن تسير وادعًا، بغباء مصطنع، إلى الجهة التي تريد، الجهة التي عليك أن تتغافل أيضًا، أنها ليست آمنة أكثر من أي مكان آخر، والتي تقريبًا لا توجد إلا داخل افتراضك عنها، والتي تنمحي من الوجود، وإلى الأبد، فور أن تتوقَّف.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يميل بعض الناس للتخفي من أزماتهم، كأنهم يتجاهلون في الطريق شخصًا يعرفونه ولا يحبونه، البعض الآخر تكسبه الأزمات ثقلًا، تجعله حكيمًا ولكن عجوزًا وعاجزًا، البعض يميل للمواجهة، إما يتخطونها أو تتخطاهم، البعض يهرب إلى عقله ليخلق له جنة خيالية يسكن فيها، طمعًا في أن تمر العاصفة وتنتهي من تلقاء نفسها، البعض يهرب عقله منه، تحدث كل تلك الأمور تقريبًا من دون تفكير، من ستنجح حيلته سيظن أنه اكتسب حكمة سيحاول تمريرها لمن بعده، حكمة غير مفيدة على الإطلاق، لأن أحدًا آخر لن يمر بالتجربة نفسها بالضبط، لكنها كل ما يملك. مرر البشر في مسيرتهم أشياء جميلة، موسيقى وشعرًا وآلاف النسخ من العوالم المثالية التي حلموا بها، لكن العالم كان يجيد أن يخلق كل مرة عواصف جديدة، يتوهون فيها مرة أخرى، غير محصنين، على الرغم من كل التجارب السابقة، ولا يملكون في مواجهتها إلا جعبة من أحلام تتزايد تعقيدًا وضخامة وجمالًا ومنطقية وواقعية من جيل إلى آخر، حتى يبدو لكل جيل منهم أن العاصفة الأخيرة ليست إلا غبارًا يخفي خلفه العالم الجميل المنتظر، ومن بين الحيل الكثيرة التي مرَّروها، كانت هذه الفكرة تنجو كل مرة، كأن كل عاصفة تحييها، أكثر فتوَّة وبهاءً في كل مرة، وربما من دون العاصفة، ما أصبحت بكل هذا الاكتمال الساحر الوشيك.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يبدو مثيرًا أن كل من آمنوا بفكرة ما، آمنوا بها قبل أن يعرفوها كاملة. الإيمان أقرب لحب من نظرة أولى، لا تعرف الفتاة بشكل كامل من نظرة أولى، لو أردنا الدقة، أنت لا تعرفها أصلًا، تعرف أن هذا جسد مثير يتحرك به شخص ما، وأن وجه هذا الجسد جميل (ليس هناك ما تخجل منه، بالتأكيد لم تحبها من النظرة الأولى بسبب عقلها). مهلًا، أنا لا أقصد أن أقول هذا أمر خاطئ بالضرورة (أعتقد أنني أقول العكس تقريبًا)، فهناك مفارقة، لا يمكنك أن تحب شخصًا تعرفه بشكل كامل، لا يتسنى لك أبدًا أن تعرف فعلًا حتى النهاية شخصًا آخر، كما أنك تعتقد بفكرة ما من بداياتها البسيطة، تفترض صحة امتداداتها، أو تأمل ذلك، فلا وقت للسير خلفها في كل اتجاه، لا يكفي العمر لذلك. لن تجد شخصًا ظل يدرس أيديولوجيا ما خمسين عامًا، قبل أن يقرر أنه الآن يستطيع الإيمان بها، يؤمن المرء في فتوة شبابه بفكرة، بمجرد النظرة الأولى (ليست هناك طريقة أخرى للإيمان على ما أعتقد)، ثم يطلب منها الخروج في موعد ليتعرف إليها، ولكنه لا يوقف حبه على التعرف إليها في الموعد الأول، لقد حسم هذا الأمر أصلًا. يمكن توبيخ عقولنا في أشياء كثيرة، لكن يجب أن نعترف لها بقدرتها على افتراض امتدادات غير معروفة، أنت مثلًا تسمع في شبابك أشياء كثيرة (الحرب الأهلية الإسبانية، الشيوعية، الأزمة الاقتصادية الكبرى)، ويخلق عقلك خلف أسماء هذه الأشياء أشباح طرق ما (مثلما اختلق شخصية ساحرة للفتاة الجميلة)، ليبدو لك أن معرفتك بهذه الأسماء عميقة بالشكل الكافي، ولا تنتبه لخطأ ذلك، إلا إن قررت أن تسير في هذه الطرق، لتجد أن كل شيء جديد وتعرفه للمرة الأولى، وحيث يكون مكانك، يخلق عقلك امتدادات جديدة، تبدو واضحة لك تمامًا بشكل مشوَّش جدًّا (هذه هي المفارقة)، وهكذا تظل نظرتك كل مرة (بسبب لانهائية الامتدادات) نظرة أولى، (يمكن تشبيه الأمر بأنك تتحرك تجاه شيء ما يبتعد عنك بطول خطوتك نفسه، الفرق أنه لا يتحرك، ولكن عينك كلما خطوت خطوة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أصبحت تنظر أبعد بمقدار خطوة)، نظرة أولى لا يمكن إغناؤها بنظرة ثانية، فكل نظرة إلى أي شيء تصير على الدوام نظرة أولى جديدة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أخاف أن يظل العالم يحاصرني، حتى يكاد يمحوني

أن أظل أهرب مما يخيفني، حتى أنسى ما أريد

وأن يلجمني التردد، فأظل في مكاني دومًا

أخاف مما لا يمكنني استدراكه، ومن انفلات ما هو لي

ومن رغبة عقلي في معرفة كل شيء، قبل أي حركة

أخاف من عدم معرفتي بذاتي، هل خلف هذا الجسد المرهق، والعقل المليء بالهواجس يوجد شيء أجمل، هو أنا، أم أنني محض مجموع مخاوفي وآلامي؟

أخاف ألا أستطيع مقابلة المودة بمثلها، ومن العجز عن مساعدة من أحب

وأخاف أن تسلبني مخاوفي الشيء الوحيد الذي يمكنني مشاركة العالم إياه، مقدرتي على التفكير

أخاف على ناظم حكمت وهو يهرب مطرودًا من بلده، وعلى «لوركا» وهو يتخفى في بيت منتظرًا القبض عليه في أي لحظة

أخاف على «بورخيس» من ظلمة عينيه، وعلى «نيتشه» من ظلمة عقله

أخاف على «رامبو» في بوهيميته، وأخاف عليه وهو يترك الشعر ليجول العالم ليفعل ما لا نعرف

أخاف على المسلمين الأوائل في تخفيهم، وعلى الملحدين الأوائل من إحساسهم بوحشة العالم

أخاف على الثائرين من الاندفاع الأرعن، وعلى الجبناء من تصلب أرجلهم

أخاف على المؤمنين من احتمالية خطئهم، وعلى من لا يملكون

98%
الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أي إيمان ولا يجدون ما يتشبثون به، فكل امرئ عليه التشبث بشيء ما

أخاف على الأذكياء إذ يجابهون بما لا يملكون الوقت للتفكير فيه، ولا أحد يمتلك الوقت الكافي فعلًا للتفكير في أي شيء، وعلى الأغبياء من الحسابات الخاطئة التي تنهي كل شيء قبل أوانه

أخاف على محمد في الغار، وعلى المسيح في الطريق للصليب

على الجنود في الطريق للمعركة، وعليهم وهم عائدون منها

أخاف على من لا يحتملون الحياة، ليس لأنهم مخطئون أو شديدو الهشاشة، بل من شعورهم بأنهم أذكى من إكمال لعبة خاسرة حتى النهاية

أخاف على المشردين، وعلى من يبكون تحت أسقف عظيمة

أخاف على الأندلسيين وهم يغادرون بلدهم في المراكب مرتعشين، وعلى اليهود وهم يُقادون للمحرقة مذهولين

أخاف أن تُواجَه نكاتي بالصمت، وأن يتسبَّب أحد أفعالي في حزن شخص ما

أخاف أن أثقل على من أحبهم، دون أن أدري

وألا أنتبه لمن يطلبون مساعدتي

أخاف على التائهين في الشوارع، وعلى من يتجهون بإرادتهم إلى حيث لا يحبون

أخاف على المحبين المنهزمين من كسرة قلوبهم، وعلى من ظفروا بمن يحبون، من تصلب قلوبهم بمرور الزمن

أخاف من الحنين لشيء سيئ نتيجة لمرور الوقت وتداعي الذاكرة

أخاف من الاستسلام قبل لحظة واحدة من النصر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وأخاف من قسوة المنتصرين

أخاف أن تكون حياتي محكومة بالخيارات الأقل ضررًا، دون جميل أطارده

أخاف من السخرية ممن لا يستطيع الرد، ومن التقرب بمن لا يستطيع الرفض

أخاف على من يحتمون من عواصف صاخبة بجدران هشة، أخاف من طمأنينتهم الخادعة

أخاف على الخائفين وهم يطمئنون من هم أقل خوفًا، لشعورهم بالمسؤولية

وأخاف ألا أمتلك ما يمكنني من المشاركة في خلق عالم أجمل، سوى خوفي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner